الدكتوره نازك عبد الفتاح

مدرسة بقسم اللغات الشرقية
كلية الآداب - جامعة عين شمس

أضواء على الأدب العبري الحديث

من أواخر القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن العشرين

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة القاهرة الحديثة
٦٦٩ شارع التحرير - القاهرة

الدكتورة نازك عبد الفتاح

مدرسة بقسم اللغات الشرقية
كلية الآداب – جامعة عين شمس

أضواء على الأدب العبري الحديث

من أواخر القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن العشرين

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة القاهرة الحديثة
٦٦٩ شارع الأزهر – القاهرة

تقدمة

منذ القرن الثالث عشر أخذ اليهود الذين كانوا يعانون من الطرد أو الاضطهاد فى دول أوروبا المختلفة ينزحون إلى بولندا[1] حيث عملوا بالتجارة . وكان ملوك بولندا فى ذلك الوقت يشجعون كل من له دراية بالتجارة لما فى ذلك من إنعاش لممتلكاتهم الخاصة. وعاش اليهود البولنديون يمارسون التجارة بحرية ، وإن كانوا فى نفس الوقت يمارسون حياتهم الاجتماعية والدينية الخاصة منعزلين عن المجتمع البولندى بوجه عام . وازداد اليهود انعزالية عن المجتمع البولندى حين ساد بينهم الاعتقاد بأن صداقتهم مع زملائهم من التجار المسيحيين لن تجلب عليهم الكثير من النفع وأن تعاملهم مع الفلاحين البولنديين لن يجديهم شيئا ، كما زين لهم نجاح تجارتهم وانتعاش حياتهم الاقتصادية العيش بعيداً عن مواطنى البلد التى يعيشون فيها ، حيث فرضوا على أنفسهم مزيداً من الانعزالية تتضح فى استخدامهم لغة خاصة بهم وحاولوا إثراء هذه اللغة وتطويرها لجعلها لغة أدبية .

---

(١) أنظر ص ٩٤

James Parkes, A history of the Jewish People, p. 94

وكما حدث فى بولندا من انطواء اليهود على أنفسهم بعد ما حققوا مكاسبهم من الدولة التى زحفوا للإقامة بها بعد تشتتهم فى العصور الوسطى حدث فى الدول الأوروبية الأخرى .. فقد بدأ اليهود يعرفون طريقهم إلى هولندا وبلجيكا فى القرن الرابع عشر . ورحبت هذه الدول بالتجار الجدد الذين أخذوا الجنسية الهولندية. ثم تحقق لهم فيما بين عامى ١٦٠٢ — ١٦٠٥ شراء مدافن كما تم لهم فى سنة ١٦٠٦ تأسيس أول جمعية لهم وذلك فى أمستردام .

كذلك رحبت بهم إيطاليا فى عصر النهضة . وهناك تمتع اليهود بحياة النهضة الجديدة ، كما شاركوا فى البداية فى الحياة من حولهم . وحاكوا الطليان فى كتابة الشعر وحب الموسيقى والفن والمسرح ، كما اشتغلوا أيضاً بالتجارة والصرافة .

وفى انجلترا وجد اليهود المهاجرون إليها مرتعاً خصباً لتجارتهم، كما استطاعوا أن يأسروا قلوب المسيحيين برواياتهم عن القبائل العشر المفقودة وعن عودة المسيح،وراحوا ينشرون فكرة ضرورة وجودهم فى البلد أثناء عودة المسيح . وقد اقتنع المسيحيون البروتستانت بهذه الأفكار غير أن الحكومة وكذلك معظم المسيحيين تصوروا أنها هراء .

عاش اليهود فى كل هذه الدول فى أحياء مسورة تغلق بواباتها

فى المساء . هذه الأحياء الخاصة تسمى بالجيتو (كلمة عن أصل إيطالى) . ويرجع وجود الجيتو إلى القرن العاشر . وإن كان خلق الجيتو قد جاء نتيجة قرار أصدرته الدول التى استوطن اليهود فيها لحصر هذه الفئة وعزلها خشية تمردها وانفلات زمامها ، إلا أن اليهود الذين كانوا قد اعتبروا الجيتو فى البداية طغيانا عليهم عادوا واستطابوا الجيتو ورحبوا بفكرة تجمعهم فى مكان واحد عن تفرقهم فى أحياء مختلفة وسط شعب اعتبروه عدواً لهم .. وقوى من رغبتهم فى الانعزال اعتقادهم الراسخ بأنهم شعب الله المختار . ذلك الاعتقاد الذى أدى إلى الاحساس المتفاقم بأنهم أخير شعوب البسيطة وأكثرهم بجداً وعظمة قد أوصلهم لدرجة من العجب والكبرياء جعلتهم يرفضون الاختلاط بغير اليهود من سكان البلاد الأصليين ويؤكد ذلك وجود نقش على بوابة الجيتو فى Padua فى إيطاليا ويرجع إلى القرن السادس عشر حيث يقول « أبناء الشعب وارثو مملكة السماء لايتصلون أو يختلطون بهؤلاء غير الوارثين »(١) .

وقد مارس اليهود فى الجيتو — الذى كان يعتبر فى بعض الدول

---

(١) المجلد الخامس ص٦٥٣
Jewish Encyclopedia, Vol. V. p. 653

دولة داخل دولة — حقوقهم المدنية وشرائعهم الدينية حيث بنوا معابد واحتفلوا بأيام السبت والأعياد ، وعاشوا فى مجتمعاتهم الخاصة قاصرين اهتمامهم على أمورهم الدينية حيث عكفوا على دراسة الكتب الدينية والتلمود . وكانت الربانية هى مركز القوة والغنى فأصبحت مطمع الشباب اليهودى . ولبثوا فى انغماسهم المغالى فيه فى الدين يعيشون فى الماضى الذى يفخرون به غير مبالين بانفصالهم فكريا واجتماعيا عن العالم الخارجى وتخلفهم علمياً وعملياً عن الشعوب الأخرى .

حركة التنوير « الهسكالاه »

ثار جماعة المثقفين اليهود فى أوروبا على هذا الوضع الانعزالى، فقاموا فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر بحركة للقضاء على هذه الانعزالية واندمج أبناء شعبهم فى الشعوب الأخرى ، وتسمى هذه الحركة الهسكالاه بمعنى تنوير وتثقيف ويسمى القائمون بها « المثقفون المتنورون » . . . وتتلخص أهداف هذه الحركة فيما يلى :

١ ـــ القضاء على الانعزالية التى فرضها اليهود على انفسهم فى الجيتو .

٢ ـــ الاندماج فكريا وعقليا مع الشعوب الأوروبية وتعلم لغاتهم والاستفادة من علومهم بأقصى درجة .

٣ ـــ تحويل الدراسة العبرية من دينية إلى دنيوية وذلك باستبدال دراسة التلمود بدراسة التوراة والأدب العبرى بشعره ونثره .

٤ ـــ صبغ التعليم بالروح العصرية عن طريق قراءة العلوم العصرية الحديثة ومن ثم استيعابها فى الأدب العبرى .

وكان مهد « الهسكالاه » ومركزها فى برلين حيث عاش اليهود تحت حكم فريدريك الثانى فى يسر ورخاء أكثر من معاصريهم من اليهود فى أى مكان آخر[1] .

وأول من أجرى الاتصال الفعلى بين اليهود وثقافات الدول الأوروبية هو موسى مندلسون الفيلسوف الألمانى (١٧٢٩ — ١٧٨٦). حيث نادى بنشر « المذهب العقلى » الذى ينبذ القومية وينكر الفردية العنصرية للشعب اليهودى ، كما نادى بضرورة تعلم اللغة الألمانية للوصول إلى الدوائر الألمانية المثقفة فقام بترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية ، ومن خلال هذه الترجمة حصل اليهود على مفهوم دنيوى للكتاب المقدس . كما أن مندلسون قام بالإشراف على كتابة تفسير وتعليق على التوراة تحت عنوان Bi'ur « شرح وتفسير » ، وقد أبطل هذا التفسير كل تأثير للطريقة الربانية والتلمودية فى الشرح . وكان هذان العملان الأديبان فاتحة لفترة الهسكالاه — التنوير — التى تعتبر فترة حاسمة من فترات التاريخ اليهودى .

---

(١) راجع Spiegel, Hebrew Reborn, p. 54

وقد أسس أربعة من المثقفين وهم إسحق أبخل ، مندل بريسلون ، شمعون وصمويل فريد لاندر بمجلة شهرية فى كونيجيز برج عام ١٧٨٣ تحت عنوان Measef « الشامل » وكانت تنشر باللغة العبرية وقد اشتملت على أشعار . مقالات فى النحو ، موضوعات علمية وأخلاقية ، سير عظام الرجال وكذلك نبذ عن الأحداث المعاصرة مما جعل هذه المجلة تصبح عماد الحركة فيما بعد .

وإن كان من طبيعة الأدباء اليهود حب التجوال من دولة لأخرى فقد حملوا مبادىء وأهداف حركتهم الجديدة إلى الدول الأوروبية الأخرى[١] . وكانت النمسا أول دولة تأثرت بمبادىء «الهسكالاه» - التنوير - وكانت الحركة هناك تعضدها الحكومة . وقد أخذ جوسيف الثانى (١٧٦٥ - ١٧٩٠) على عاتقه مهمة فرنجة اليهود وذلك عن طريق التعليم الإجبارى وممارسة حرية التفكير . ومن أهم من برزت أسماؤهم من المثقفين فى النمسا مناحم منـدل ليفين (١٧٤٩ - ١٨٢٦) الذى يرجع له الفضل فى تطوير النثر العبرى ، ومن مؤلفاته « رسائل الحكمة » ، « علاج الشعب » ، « حساب النفس » ، « رحلات البحر » .

---

(١) راجع M. Waxman, A history of Jewish literature, Vol. III, p. 139

وحين عاد إسرائيل شاماتس ، هيرتس همبرج وسليمان دابنو ـ وهم من يهود بولندا وبوهيميا ـ من زيارة مركز الهسكالاه ، نشروا مبادىء الهسكالاه بين أبناء طائفتهم الذين كانوا حتى ذلك الحين ربانيين . غير أن الصراع بين الربانيين وأتباع الحركة الجديدة فى بوهيميا كان أقل ضراوة منه فى الدول الأخرى ، حيث أن الربانيين اعترفوا بفائدة التعليم الدنيوى وشجعوا الحركة الجديدة[١]. وقد أجبر هرتس همبرج ـ الذى كان مفتشاً على جميع المدارس التى أسست لليهود فى جاليسيا ـ اليهود على دراسة العبرية والألمانية طبقا لخطط « الهسكالاه » فى برلين .

ثم عرفت « الهسكالاه » طريقها إلى دول غرب أوروبا حيث كرس العديد من الكتاب قلمهم وفكرهم فى محاولة لدمج اليهود مع الشعوب الأوروبية والوقوف على العلوم الحديثة ، ففى أمستردام برز دانيد فرانكو وساهم بقلمه فى الـ Measef (الشامل) حيث نشرت له قصائد عديدة . كما برز موسى انشايم فى فرنسا كأول كاتب بين اليهود الذين كانوا هناك قلة فى ذلك الوقت .

---

(١) راجع Jewish Encyclopedia, Vol. VI p. 256.

وفى إيطاليا اشتهر لوزاتو الذى يعتبر طليعة الأدب العبرى الحديث كما اشتهر فيسيلى فى ألمانيا حيث كان إنتاجه الأدبى فاتحة « الهسكالاة » فى عصرها الأول(١) بصورة فعلية .

وقد امتدت مبادىء وأفكار « الهسكالاة » (التنوير) . إثر ذلك إلى روسيا ، وعلى الرغم من أن « المثقفين » ـ المسكيليم ـ هناك كانوا يلاقون كل اضطهاد ونبذ فى المجتمع اليهودى نفسه . إلا أن عددهم كان فى ازدياد مستمر ، وكان هناك مركزان للهسكالاة فى روسيا أحدهما فى ليثوانيا والآخر فى فولينيا .

وقد أقيمت أول مدرسة للتعليم الدنيوى فى روسيا . افتتحها بانير هرفيتس عام ١٨٢٢ فى أوكرانيا ، ثم أسست بعد ذلك عدة مدارس على نفس النهج فى المدن الأخرى ، لكن محاولة تطبيق مبادىء الحركة الجديدة فى هذه المدارس باءت بالفشل ، حيث أن الخطة الموضوعة لم تكن تناسب الظروف فى هذه المدارس حتى يمكن تنفيذها ، فهجر التلاميذ اللغة العبرية وراحوا يطلبون المعرفة بالروسية وباللغات الحية الأخرى التى تعلموها على يد أساتذة غير يهود .

---

(١) من ١٧٨١ : ١٨٢٠ .

وفى عام ١٨٦٣ بلغت حـــركة « الهسكالاه » ـ التنوير ـ كنقوة تعليمية ـ ذروتها العليا لنشر الثقافة بين اليهود فى روسيا . وقد عدل المسئولون مشروع مندلسون ليتناسب مع حال يهود روسيا .

ورائد « الهسكالاه » ـ التنوير ـ فى روسيا هوليفينسون الذى وجه كل جهده لإقناع الجيل القديم بمميزات « الهسكالاة » .

الآدب العبرى

فى عصر « الهسكالاه » ـ التنوير

مقدمة :

يعتبر أدب هذه الفترة نقطة تحول هامة فى تاريخ الأدب العبرى فهو الأساس الذى أقيم عليه صرح الأدب العبرى الحديث . ومن أهم سماته أنه حول الاتجاه الأدبى من دينى بحث إلى دنيوى ، كما أنه قد تأثر إلى حد بعيد بالآداب الأوروبية فى ذلك العصر ، وذلك تطبيقاً لمخطط «الهسكالاه» من ضرورة الاستفادة من علوم الغرب ، فنجد أدباء اليهود فى هذه الفترة وهم رائدو الحركة الفكرية الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تحرير يهود الجيتو اجتماعيا ودينيا وفكريا يحاكون أسلوب كتاب الغرب . فكتبوا الشعر والروايات المسرحية التى لم تكن تؤلف لعرضها على المسرح بل كانت تهدف إلى إيجاد مكان ينتصف الطريق بين الشعر الغنائى والقصة الطويلة وذلك للتعبير عن أفكار الأدباء الذين كانوا يعملون على تغيير الحياة الاجتماعية لأبناء شعبهم . وكانت مادة هذه الروايات المسرحية مستقاة من الكتاب المقدس وكذلك من الآداب الأوروبية الحديثة(١)

---

(١) راجع M. Waxman, A history of Jewish Literature, Vol. III, p. 89.

كذلك قدم هذا العصر الكثير من الكتابات النثرية التي كانت تتسم بطابع إرشادي تعليمي سالكة في ذلك مسلك الحركة نفسها ، وقد تضمنت مقالات في مختلف العلوم وكتابات في النحو والمبادىء الدينية الأخلاقية وتعليقات على الكتاب المقدس .

وقد برز العديد من الأدباء في ذلك العصر ، نكتفي بذكر أشهرهم ممن ساهموا مساهمة فعلية في تطور الأدب العبري الحديث . ففي إيطاليا اشتهر موسى حاييم لوزاتو وهو شاعر صوفي وكاتب أخلاقي . ولد لوزاتو في Padua (بادوا) في إيطاليا عام ١٧٠٧ وتوفي في عكو عام ١٧٤٧ . وقد تلقى تعليما دينيا ودنيويا وتعلم الإيطالية والفرنسية واليونانية . بدأ نشاطه الأدبي في سن مبكر . فألف كتابات دنيوية كما قدم كتابات صوفية وأخلاقية ، إلا أنه نال شهرته من خلال قرضه للشعر .

لقد ساهم لوزاتو بأسلوبه في تطوير الدراما (الرواية المسرحية) في العبرية ، وقد نادى بتحرر الشعر العبري من البحور والأوزان الكثيرة التي اقتبسها في العصور الوسطى من الشعر العربي ، واكتفى بتقديم بحر يحتوي على إحدى عشرة حركة أو سبع حركات مع تركيز خاص على النبرة ، غير أنه استعان في بعض الأحيان بالقافية وخاصة في آخر كل فقرة شعرية .

كتب لوزاتو ثلاث روايات مسرحية أولها «قصة شمشون» وهى دراما فى ثلاثة فصول اقتبسها عن قصة الكتاب المقدس عن حياة شمشون وأعماله الجبارة مع بعض الإضافات التى تتمثل فى صور رمزية أسطورية كأشخاص الرواية مثل جبورا Geburah (قوة) ، حبشيك Heshek (كيوبيد) ، شوحد Shohad (رشوة) ميرماه Mirmah (خديعة). وقد سلك لوزاتو الأسلوب الكلاسيكى فى وصف هذه الصور الأسطورية ، فصور «القوة» مثلا على أنها امرأة مرتدية درعاً وخوذة ، ماسكة سيفاً بيدها اليمنى وفى يسارها حزمة تشتعل (هذه الصورة مأخوذة من تمثال بولوس أثينا إلهة الحرب كما صورها الفنانون اليونانيون) ، وصور «كيوبيد» فى صورة ولد صغير ملتصقة «الرشوة» أجنحة ويحمل فى يده جعبة وسهما على نمط كيوبيد وأما بجسده فصورها فى هيئة رجل أعمى يحمل فى يده ميزانا مائلا إلى جانب واحد[1] . ورمز إلى «الخديعة» بصبية جميلة تحمل كوبا من العسل فى إحدى يديها وثعبانا فى اليد الأخرى .

وقد تناول لوزاتو أشخاص المسرحية دون التعمق فى النواحى السيكلوجية الخاصة بهم ، لكنه كان غير ذلك بالنسبة لدليلة فنراه

---

(١) أخذ هذا الرمز عن الكتاب المقدس حيث ورد فى سفر التثنية إصحاح ١١ آية ١٤ «تعمى الهدية عين العاقل» . والمقصود بالهدية هنا الرشوة .

يعبر عن الصراع الذى دار فى نفسها والذى بدأ بإعراضها عن طلب الأمراء الفلستيين لمعرفة سر قوة شمشون بدافع من حبها له ، وانتهى بقبولها ذلك فى سبيل الرشوة التى عرضوها عليها ، كما أن عرضه لمأساة شمشون النهائية كان عرضاً ضعيفاً . هذا باستثناء مناجاة شمشون الخاصة بخداع دليلة وحبها الزائف .

وعلى الرغم من أن قصة هذه الرواية مقتبسة من الكتاب المقدس إلا أن لوزاتو قد صبغها بطابع دنيوى فلا يكاد يوجد فيها أثر لأى عناصر دينية .

أما روايته الثانية فتحت عنوان « حصن القوة » ، وهى دراما شبه رمزية تقع فى أربعة فصول ومأخوذة عن أمثولة فى الزوهر[1] ، والتى تورثت فيها التوراة بصبية جميلة تسكن حصناً عاليا ذا مدخل سرى ، وتظهر نفسها لحبيبها الذى يكتشف المدخل بعد طول عناء . وفى اقتباسه لهذه الأمثولة ضمن لوزاتو روايته مؤامرة معقدة وتتلخص فى أن الملك رام الذى بنى حصناً قوياً وغرس فى أعلاه حديقة غناء قد أخفى المدخل إلى الحصن وأعلن عن عرضه خطبة

(١) الزوهر هو مبحث دينى باللغتين الآرامية العبرية يحتوى أساساً على الثيوصوفيه (أى معرفة الله عن طريق « الكشف » الصوفى أو التأمل أو كليهما) ، وتتناول الموضوعات الخاصة لطبيعة الرب نشأة الكون ، الروح ، الخطيئة ، الخلاص .

ابنته الجميلة شيلوميت (بمعنى ألفه وانسجام) إلى من يكتشف مدخل هذا الحصن المنيع . وكان عند مرور الأمير شالوم (سلام) مصادفة إلى جوار الحصن أن اكتشف المدخل وصعد إلى الحديقة وخرج لتوه حيث أنه لم يكن على علم بإعلان الملك ، ويتصادف مرور رجل اسمه زيفا ، وعند رؤيته المدخل مفتوحاً يهرع إلى الحديقة فيحضر من ثمارها دليلا على وصوله هناك وتتم خطبته إلى الأميرة شيلوميت التى كانت قد رأت الأمير شالوم وأحبته كما أحبها غير أن «آدا» صديقة «شيلوميت» كانت تحب «شالوم» أيضا، فحاكت مؤامرة لتوقع بشيلوميت فترسل خادمتها إلى زيفا بهدية تتمثل فى ثمرة مسممة على أنها من « شيلوميت » ، وتخبره هى فى نفس الوقت عن محتويات الهدية فيخبر بدوره الملك رام الذى يجرى تحقيقاً يسفر عن مقابلة « شيلوميت » لرجل غريب وهذا يعنى إعدامها طبقاً لأحكام القانون ، لكن شالوم يرجو الملك بتنفيذ حكم الإعدام فيه فيوافق . وتنتهى الرواية باعتراف زيفا بالحقيقة حول اكتشاف المدخل وزواج شيلوميت من شالوم الذى خلف الملك رام ملكا وحكم البلاد بحكمة شديدة سنوات طوال .

وأحداث هذه الرواية مأخوذة عن Pastor Fido[1] مع تغيير

---

(١) الراعى المخلص للشاعر الإيطالى المشهور باتيستا جارينى .

بسيط في المؤامرة وتهويد الأسماء[١] .

وتتمثل القيمة الأدبية لهذه الرواية في المناجاة التي تدور على لسان الشخصيات والتي حاكاها معظم الكتاب الذين جاءوا بعد لوزاتو فمن ناحية الصياغة الشعرية كان متقدماً ، مثل ذلك مناجاة الأمير شالوم الذي كان يهيم على وجهه في الوديان فخلبه جمال الطبيعة فأخذ يتغنى بسحرها . ويعتبر هذا أول تعبير عن جمال الطبيعة وسحرها في الأدب العبري الحديث[٢] .

وأسلوب هذه الرواية أكثر وضوحا من أسلوب الرواية السابق ذكرها ، وقد استعان لوزاتو في هذه الرواية بالبحور العربية ، إلى جانب استخدامه لشعر الكتاب المقدس وتعبيراته ـ كما أن محاكاة لبعض إصحاحات سفر أيوب تظهر واضحة في الحديث الذي دار بين شالوم وثلاثة من الأصدقاء جاءوا يواسونه .

وذروة إنتاجه الدرامي روايته التي ألفها أثناء إقامته في امستردام وهي « مدح للمستقيمين » ، وهي تعرض في أسلوب شعري مدى سيطرة العقل على الأمور أكثر من سيطرة الاحساس والشعور .

---

(١) راجع : تولدوت هسفروت هاعفريت هحداشاه ، لاخوفر ، المجلد الأول ، هسفروت ص ٢٢ .

(٢) Waxman, A history of Jewish literature, Vol, III, P. 101,

وشخصيات هذه الرواية التى تقع فى ثلاثة فصول كلها رمزية ، فنجد سيخل Sechel وتعنى « عقل » تهيلاه Tehillah وتعنى « مدح » سيخلوت Sechlut « جهل » هامون Hamon « عامة الشعب » . وملخصها أن إيمت Emet « حقيقة » وخادمه رزقا فى نفس الوقت بغلامين سمى ابن الأول يوشر Yosher وابن الثانى راحاب Rahab .. واتفق «ايمت» مع «هامون» أن يهب ابنته تهيلاه زوجة لابنه يوشر وتقوم حرب فى ذلك الوقت ويدخل الأعداء المدينة ويفقد الطفلان . ويبلغ «إيمت» عن فقدان طفله مع الإدلاء بأوصافه ثم يموت .. وتمضى سنوات يظهر بعدها «راحاب» الذى تقنعه «ترميت» (بمعنى زيف) بالادعاء بأنه ابن « إيمت » حتى يتزوج من « تهيلاه » وتتم الخطبة .. وفى يوم الاحتفال التمهيدى بالزواج تقوم عاصفة هوجاء ويستبد الخوف بالمدعوين ، ويخبرهم رجل عجوز بشأن فقدان ابن « إيمت » ويدلى بأوصافه . . ومن التحقيق يتبين أن العبد قد انتحل شخصية سيده ، ويقوم « سيخل » بتقديم « يوشر » الذى يتزوج أخيراً من « تهيلاه » .

وتتجسد القيمة الأدبية لهذه الرواية فى التعبيرات الشعرية التى وردت على لسان الشخصيات وتتمثل فى مناجاة « تهيلاه » فى الفصل الأول ، وتعبير « سيخل » عن تردد عقل الإنسان وتأثره السريع

بالخديعة والزيف ، وتغنى « يوشر » بجمال الطبيعة وبكائه سوء حظه حيث تمنيه سفلانوت Savlanut (بمعنى الصبر) مرضعته بانتصار الحقيقة حتما .

وتعتبر هذه الرواية انعكاسا رمزيا لتجربة لوزاتو الشخصية وصراعه مع أبناء شعبه الذين بدلوا تعاليمه بتعاليم أخرى ، فهو يرمز مثلا بانتصار « يوشر » إلى أمله فى انتصاره هو حين يعترف به كداعية للأفكار السليمة .

وأسلوب هذه الرواية يماثل أسلوب الكتاب المقدس ، وقد استعان لوزاتو فيها بالبحور العربية رغم معارضته لها .

ولقد كان لهذه الرواية تأثير كبير على كتاب القصة الذين أتوا بعده فحاكاها الكثير ، كما نجد تأثيرها واضحاً فى رواية « حب صهيون » لممثل الأدب العبرى للرواية القصصية ابراهيم مابو .

وقد ألف لوزاتو فى الكبالاه[1] والفلسفة كما أن له مؤلفات عديدة فى المنطق والبلاغة وعلم الجدل . فمن دراساته فى البلاغة نذكر كتابه « لغة الدراسات » ويتناول موضوعات إنشاء وخطابة

---

(١) الكبالاه : « الصوفية » وهو مبدأ عند اليهود يتعلق بالرب والكون ويهتم باختيار القديسين من الماضى .

وشعر فى ثلاثة أجزاء يناقش أولها مبادىء البلاغة على وجه العموم والثانى مطابقة هذه المبادىء مع الإنشاء العبرى ويتناول الثالث الأسلوب وقواعد الشعر. ويلتزم لوزاتو فى مناقشاته فى هذا الانتاج الأدبى جانب المنطق فهو يبدأ بتحليل أوجه الموضوعات المختلفة طبقاً لمبادىء المنطق .

وأما إنتاجه « طريق الادراك » فقد ساهم به فى دراسة التلمود من الناحية المنطقية ويشتمل على مناقشات فى التلمود وتحليل لطريقة الجدل (الپلپول) .

ومن أعماله أيضاً « طريق المستقيمين » ويتضمن مقالا يوضح فيه ماهية السلوك السليم التقى لليهود[١] . وتنطوى قيمته الأدبية فى بساطة العرض وفى الأسلوب ذاته، وذلك لتقريب المفاهيم اليهودية للأذهان العادية فأحدث بذلك تطوير ويعتمد ترتيب الكتاب أساسا على رواية أخلاقية لأحد التنائيم[٢] من الجيل الرابع وهو رابى بنحاس بن يائير حيث يقول :

يقود الحذر فى السلوك إلى الحزم ، ويقود الحزم إلى طهارة

---

(١) راجع تولدوت هسفروت هاعفريت هحداشاه ، لاحوفر ، المجلد الأول ، ص ١٦ .

(٢) أى معلموا الشريعة الشفهية ، وهم جماعة العلماء المتخصصون فى دراسة المشنا .

الروح والطهارة إلى الأناة والأناة إلى الصفاء والصفاء إلى الورع » والورع إلى التواضع والتواضع إلى الخوف من الخطيئة ، ويقود الخوف من الخطيئة إلى الطهارة » . . وتتناول الأخلاقيات التى عرضها لوزاتو فى هذا المقال السلوك الاجتماعى كذلك الدينى فى أسلوب بسيط سهل .

ورغم أنه كرس كل جهده فى الشعر إلا أنه أصدر عدة كتابات صوفية (وذلك فى الفترة ما بين عامى ١٧٢٧ — ١٧٣٠) منها « الزوهر الثانى » وهو على نمط الزوهر ، كذلك مقالا عن مبادىء الكبالا تحت عنوان « أبواب الحكمة » ، كما كتب المؤلف « فيلسوف ومتصوف » وتتضمن حديثا بين فيلسوف ومتصوف .

ومن أعماله الأدبية أيضا كتاب مزامير تضمن ١٥٠ مزمور على نهج مزامير داود[1] .

* * *

ومن نظرة إلى إنتاج لوزاتو الأدبى نستشف وجود الناحية الدينية فيه دائما وهو يهدف بذلك إلى ربط اليهود بالفلسفة الأصلية ، فنجده فى « قصة شمشون » يتناول موضوعا دينيا لكنه يلبسه ثوبا عصريا مبتعدا كل البعد عن كل أثر دينى وهو بذلك يصبغ عمله بروح

(١) نفس المرجع ص ١٩ .

العصر مع وصل الرباط وثيقا بينه وبين التراث القديم .

وتظهر الناحية الدينية واضحة أكثر فى « حصن القوة » حيث نلمس محاكاته للكتاب المقدس والتأثر به . . . وفى هذه الرواية يبرز لوزاتو انتصار القوة على الخديعة والحق على الباطل ، كما يبرز عودة اليهودى إلى التصرف السليم بعد ارتكابه خطأ محاولا بذلك إثبات أن اليهودى عظيم وممتاز وفى ذلك تبرير لاختيار الرب له . نجد كل ذلك واضحا أيضا فى روايته « مدح المستقيمين » حيث يثبت انتصار الحقيقة دائما ومحاولة الخديعة والزيف التغلب على العقل اليهودى الذى ينتصر فى النهاية حتى يستحق المكانة التى يدعى اليهود أن الله قد خصهم بها .

ومن الأدباء فى ألمانيا برز نفتالى هيرتس ڤيسيلى . ولد فى همبرج سنة ١٧٢٥ وتوفى هناك فى ١٨٠٥ . أمضى طفولته فى كوبنهاجن حيث كان أبوه يعمل ممولا للملك . وقد درس اللغات الحديثة وذلك إلى جانب الدراسات الربانية التى تلقاها .

ويعتبر فيسيلى ممثلا للصراع القائم فى عصره ، فهو رغم كونه متحمساً دينياً إلا أنه تشبع بالمذهب العقلى الذى كان سائداً فى ذلك الوقت ، لذلك فقد وقف يناهض الربانيين الأرثوذكس فى النمسا وألمانيا الذين كانوا يعارضون الإصلاحات التهذيبية التى تجريها حكومة جوسيف الثانى . وفى رسائله الثمانية التى جمعت فى كتاب تحت عنوان « أقوال السلام والحق » والتى بدأ فى كتابتها عام ١٧٨٢ أكد حتمية هذه الإصلاحات — حتى من وجهة نظر التلمود — كما وضح ضرورة الدراسات الدنيوية وخاصة دراسة اللغات الحديثة ودراسة عبرية الكتاب المقدس .

ففى رسالته الأولى مثلا أخذ ينادى يهود النمسا والمجر بضرورة الاستفادة من فرمان التسامح الذى أصدره ملك النمسا جوسيف الثانى

والذى حصلوا بمقتضاه على مميزات جمة فيها حرية التنقل وحرية تأسيس المدارس وممارسة التجارة ، كما أخذ يحثهم على اغتنام هذه الفرصة لتحسين نظام التعليم وتطويره ليتناسب مع مقتضيات العصر الحديث . وقد قدم مخططا لتعليم الشباب يتضمن ثلاث مراحل فى كل مدرسة . لكل مرحلة برنامج خاص ، ففى المرحلة الأولى يتعلم الطالب اللغة العبرية والنحو وفى الثانية التوراة والشروح عليها — على أن تدرس التوراة من خلال ترجمة مندلسون — وفى المرحلة الثالثة تدرس المشنا . والمقصود من هذا المخطط تعريف الشباب بشتى ألوان المعرفة فى العبرية .

وقد نال فيسيلى شهرته من خلال نظمه للشعر ، ويتميز شعره بأنه شعر غنائى دينى ، فقد سلك مسلك كتاب المزامير فى التعبير عن حبهم للرب وتبجيلهم لعظمته. ورغم كمال أسلوبه وقدرته على التحكم فى الألفاظ إلا أن شعره ينقصه الاحساس والخيال الفنى . فلم يكن فيسيلى يشعر بجمال الطبيعة أو يحس بروعة الحب وهى الأشياء التى يتميز بها الشاعر عادة .

وأهم ما ساهم به فيسيلى للشعر العبرى هو أسلوبه الذى تميز به ، فهو يعتبر ممهد الطريق للشعر العبرى الحديث .

وإن كان لوزاتو قد نادى بعدم التقيد بالبحور التى اقتبسها شعراء يهود العصور الوسطى عن الشعر العربى الأسبانى ، وبالاكتفاء بوزن بسيط سهل ، فإن فيسيلى قد استغنى كلية عن هذه البحور والأوزان وقدم الوزن ذا المقاطع [١] ، بمعنى أنه يتكون من سطر يشتمل على اثنتى عشرة حركة ونصف أو إحدى عشرة حركة ومقسم بمقاطع ، وتحتوى الفقرة الشعرية على ستة أسطر وتنقسم إلى جزئين يشتمل كل منهما على ثلاثة أسطر ، فيها يقفى السطر الأخير من الجزء الأول بنفس قافية السطر الأخير من الجزء الثانى ، ويقفى السطران الأولان من كل جزء بنفس القافية .

وقد صارت الصيغ التى اتبعها فيسيلى فى البحور والأوزان نموذجاً يحتذيه الشعراء فى نظم الشعر لفترة زادت على ستين عاماً . وقد أكسب أسلوبه المماثل لأسلوب الكتاب المقدس اللغة العبرية مرونة مكنتها من الخوض فى شتى الموضوعات .

وتعتبر قصيدته « قصائد المجد » أول محاولة لكتابة قصيدة

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧١ .

قصصية حماسية فى الأدب العبرى (١) ، وقد تناولت خروج اليهود من مصر فى ستة أجزاء ، يتضمن الجزء الأول اضطهاد فرعون لليهود ، مولد موسى وطفولته ، خروجه إلى إخوانه ، زواجه من صبورا ابنة يثرو . ويصف الجزء الثانى العليقة المشتعلة التى بلغ من خلالها بالرسالة ، رحلته إلى مصر ، زيارته هو وهارون الأولى إلى فرعون . ويعدد الجزءان الثالث والرابع الأعاجيب التى صنعها الرب والتى تجلت فى المصائب العشر . ويسرد الجزءان الخامس والسادس قصة عبور البحر الأحمر وهبوط المن والسلوى عليهم فى الصحراء ، انبثاق المياه من الصخرة ثم ظهور الرسالة فى سيناء .

ومما يؤخذ على « قصائد المجد » هذه أنها لا تنطوى على رونق شعرى بل ماثلت قصص الكتاب المقدس فى التتابع القصصى ، حيث التزم فيسيلى إلى حد كبير بالنص الأدبى للتوراة ولم يترك لخياله العنان فى التعبير (٢) ، وربما يرجع هذا إلى عمق تشبعه بروح الكتاب المقدس . كذلك فإن الشاعر قد أضفى على عمله صبغة تعليمية تهذيبية بحته ، فهو لم يهدف إلى إمتاع القارىء بل اكتفى بتلقينه المفهوم العميق

---

(١) M. Waxman, A history of Jewith literature, Vol, III, P. 114.

(٢) تولدوت هسفروت هاعفريت هحدشاه ص ١٢٢ — ١٢٤ .

لروايات الكتاب المقدس . كما أنه ضمن عمله شروحاً وتفسيرات كثيرة أبعدته كلية عن الرونق الشعرى وأنقصت من قيمته كإنتاج شعرى بحت.

ومن إنتاجه الأدبى أيضا تعليق على سفر اللاويين ،مقالات عن مشاكل الحياة اليهودية ، وكتاب عن المترادفات العبرية تحت عنوان « جنة مغلقة » ويتضمن بحثاً فيلولوجيا عن أصول العبرية ومترادفاتها ساهم به فى إحياء لغة الكتاب المقدس .

* * *

يقوم إنتاج فيسيلى على ركيزة دينيةفحين يؤكد فى رسائله الثمانية حتمية الاصلاحات التهذيبية عند اليهود فهو يؤكدها ويثبتها من وجهة نظر التلمود . هذا الربط الدينى يقف جنباً إلى جنب مع دعوته إلى ضرورة الدراسات الدنيوية ودراسة اللغات الحديثة وفى ذلك مسايرة للعصر مع عدم فقدان الحلقة الدينية . كما نجده فى « قصائد المجد » يعالج قصة الخروج — وهى قصة نابعة من التراث القديم — بشعره الذى اتسم بالعصرية من حيث الأسلوب والمنهج . هادفاً بذلك إلى الوصول إلى عقول العصريين مع استمرار أسلوب الربط الدينى فى نفس الوقت .

وأما عمله « جنة مغلقة » الذى يدرس النواحى الفيلولوجية للغة العبرية فهو محاولة صادقة لإحياء التراث العبرى القديم ، كذلك دراسة مستفيضة عن أصل اللغة العبرية حتى يمكن تطويرها وتدعيمها لتقف على أسس متينة تمكنها من الوصول إلى مصاف اللغات الحية المتقدمة . والهدف من ذلك جعلها لغة قوية حية إذا ما استخدموها مستقبلا لغة قومية .

أبراهام مابو :

أديب روسى ، وهو أول من أدخل الرواية إلى الأدب العبرى الحديث[1]،ولد فى كوفنو بليثوانياسنة ١٨٠٨وتوفى فى كونيجزبرج سنة ١٨٦٨ . كان أبوه مدرسا للغة العبرية ومشتغلا بدراسات عن الكبالا ، فنشأ مابو وقد جذبته مبادىء الصوفية فبذل جهداً لمعرفة أسرارها ، كذلك اهتم بدراسة الكتاب المقدس والتلمود . وكان يتقن الألمانية والفرنسية واللاتينية .

وقد تعرف فى مسقط رأسه حيث عين مدرسا للديانة اليهودية فى إحدى المدارس على واحد من العلماء الذى أشعل حبه وحماسه

(١) راجع Spiegel, Hebrew Reborn, P. 202

تجاه الأدب والتاريخ العبرى القديم وأوقفه على نواحى الجمال فى نصوص الكتاب المقدس فكان لذلك تأثير واضح على رواياته(١) .

كذلك فقد تأثر مابو بالمدرسة الفرنسية الروائية لفيكتور هوجو ، دوماس بيريه ، وأوجين سيو .. ظهر ذلك فى الطبيعية والبساطة التى رسمها للشخصيات فى رواياته والتى أضفى عليها بعد ذلك طابعاً كلاسيكيا باستعانته بنصوص الكتاب المقدس .

وقد كتب مابو روايته الأولى « حب صهيون » عام ١٨٣٠ بيد أنها نشرت فى فيلنا عام ١٨٥٣ ، وهى رواية تاريخية تصور أحداثا فى عصر الملكين أحاز ، حزقيا وملخصها كالآتى :

عاش فى أورشليم فى عصر الملك آحاز صديقان « يورام ويديديا » . يعمل الأول ضابطا فى الجيش وله زوجتان يفضل فيهما « نعمة » العاقر عن أم أولاده « حاجيت » وحين تقوم الحرب مع الفلستين يستدعى يورام بينما كانت « نعمة » تنتظر مولوداً . . فيوصى عليها صديقه « يديدياه » ويأخذان عهداً إن ولدت له « نعمة »

(١) Jewish Encyclopedia, Vol. VIII, P. 316

ابنا . فليتزوج من إبنة « يديدياه » وتقوم « حاجيت » بتدبير شئون البيت وتسيء معاملة الخدم فيشكو أحدهم إلى القاضي الذي كان يحب حاجيت قبل زواجها ومصراً على الانتقام ، فيوعز للخادم بحرق المنزل وفيه « حاجيت » وأولادها ووضع ابنه مكان ابنها وإلقاء التهمة على « نعمة » التي ثبتت عليها فهربت ولجأت إلى راعي غنم « يورام » ثم وضعت توأماً ولداً سمته « عمنون » وبنتاً سمتها « بنينا » .

وظل يديدياه مخلصاً ليورام فأحسن تربية الصبي ابن الخادم على أنه ابن يورام وخطبه لابنته طبقاً للتعاهد . . وفي أثناء ذلك سقطت سماريا وكان من بين الأسرى حمو « يديدياه » الذي أرسل له عن طريق قسيس هرب من الأسر يخبره أن شاباً — ذكر أوصافه — ظهر له قائلا أنه حبيب حفيدته « تامار » وأنه سيخلصه من الأسر ، وكانت الأوصاف تطابق « عمنون » الذي كانت تامار قد قابلته مصادفة أثناء تنزهها في الحقول ، فقدمته إلى أبويها كما قابل أخاها أخت عمنون وأحبها . . لكن القسيس الذي كان قد حصل على ختم حمي يديديا يزور بإسمه خطاباً يخبر فيه « يديديا » أنه على فراش الموت بمعنى أن الرؤيا لن تتم وأن « عمنون » على علاقة بفتاة هي في الواقع أخته التي كان يزورها في مخبئها مع أمها « نعمة » ،

وتصدم العائلة ثم تنكشف لهم الحقيقة أخيراً فى الوقت الذى أسر فيه عمنون على يد الفلستين إلى مكان يقابل فيه أباه ويحررا فى النهاية وتنتهى القصة بزواج التوأم من أبناء « يديديا » .

ومن وجهة نظر النقد الأدبى لهذه الرواية فإن المؤامرة التى تقوم عليها غير مبتدعة بل مأخوذة عن المؤامرة التى حيكت فى رواية لوزاتو « مدح للمستقيمين » وأساسها تبديل ابن العبد مع ابن السيد.. كما أن بنيان القصة وتركيبها محاكاة واضحة للأسلوب الذى انتهجه كتاب الرواية الفرنسيون . . كذلك فإن تتابع أحداث الرواية كان بطيئاً للغاية وتصوير الشخصيات كان ناقصاً . . ومع هذه النقائص فإن «حب صهيون» تعتبر عملا فنياً تنطوى قيمته فى صيغتها ووصف حياة ذلك العصر الذى ينقل القارىء من الحياة المعاصرة إلى حياة الماضى ، وفى الايجاز فى التعبير وفى رسم صور حية فى كلمات قليلة ، وفى الأسلوب الذى استخدمه مابو وهو أسلوب الكتاب المقدس الذى تناوله بطريقة مبتكرة تتميز بالبساطة والايجاز فجاءت موافقة لأحداث الرواية . كذلك فإن الرواية تعبر عن فلسفة « الهسكالاه » — التنوير — فهى على الرغم من كونها رواية تاريخية إلا أنها صورت أبطالها « متنورين » يكافحون من أجل المعرفة[1] .

---

(١) M, Waxman, A history of Jewish literature Vol, III P. 274.

ونفس الهدف الذى ابتغاه مابو من روايته هذه عبر عنه فى روايته «خطيئة سماريا» ألا وهو سمو الحياة المثالية وتصوير الصراع بين الانسان الذى يناضل من أجل الخير ، المعرفة والعدل وبين الإنسان الذى من سماته الزيف والنفاق والشر ، ويقصد بذلك الصراع بين المسكيليم (المتنورين) وبين معارضيهم مما جعل هؤلاء المعارضين يعملون على منع تداول هذه الكتب. فهو فى الرواية الثانية (خطيئة سماريا) التى تقع فى جزئين — يصور الحياة فى إسرائيل ويهودا آخر أيام مملكة إسرائيل وعصر الملك آحاز حيث انهارت الأخلاقيات ، كما يعبر عن مظاهر اللهو تحت اسم الدين بيد أنه يصبغ الشخصيات بطابع الطيبة والفضيلة فى نفس الوقت .

ورغم أن مابو لم يتمكن أحيانا كثيرة من السيطرة على تتابع الأحداث فى هذه الرواية فإننا نلمس قوة الوصف وعمق الخيال فى عرضه لحياة الماضى وتصويره لحياة العصر الذى تشمله الرواية من اللهو الدينى وعبث الأنبياء المزيفين ووعودهم الكاذبة .

وقد كتب مابو رواية أخرى وهى « الطائر الملون » (عيط تسافوع) وكلمة « تسافوع » فى التلمود تعنى منافق وقد قصد بهذا الاسم المنافقين الذين يعارضون « التنوير » مجسدين فى بطل الرواية . وقد صور مابو فى أجزاء الرواية الخمسة حياة العصر الذى يعيش

فيه ، غير أنه لم يكن حاذقاً فى ربط الأحداث وتتابعها ، كما لم يكن حاذقاً فى حياكته للمؤامرة التى تنطوى عليها الرواية . إلا أن قدرته الفائقة على الوصف أضفت على الرواية طابعاً خاصاً جعل له تأثير بالغ لا على القراء فحسب بل على الكتاب الذين خلفوه .

وشخصيات هذه الرواية ليسوا أفراداً بل نماذج يصور بهما عائلتين بينهما ضغينة ، عائل إحداها « يروحم » والآخر «جعل» رجل غنى ويدعى الورع كان يعمل فى الأصل كاتباً للحسابات عند « يروحم » ولكنه بخديعته جلب عليه الخراب كما أنه أراد أن يتزوج ابنته ورفضته وتزوجت جوسيف أحد «المسكيليم» «المتنورين» فازداد حقده على العائلة وتسبب فى فشل أعمال جوسيف الذى مات بحسرته ، واستمر « جعل » يلاحق « يروحم » وابنته الأرملة وأطفالها بشتى أنواع المكيدة فطفق ينشر إشاعات على أنهم غير أتقياء ومخالفون للشريعة اليهودية . وفى نزاعه هذا مع العائلة كان له حلفاء يرأسهم زوج إبنته «رابى تسادوق» الذى كان يتظاهر بالورع والتقوى رغم كل الجرائم التى ارتكبها فى شبابه . ومن جهة أخرى كان ليروحم حلفاء وعلى رأسهم «شاءول» صديق «جوسيف» وهو تاجر غنى له آراء متحررة و «نحميا» وهو « مسكيل » - متنور - كرس جهده لتحسين الحياة اليهودية .

وسوف نقدم هنا ترجمة لجزء من هذه الرواية لأنها أول رواية تصف الحياة المعاصرة له بما فيها من صراعات ، كما أنها تعتبر نموذجا حياً للهسكالاه « — التنوير — حيث أنها تصور النزاع بين قادة النظام القديم للحياة اليهودية وبين زعماء الهسكالاه » كما أن ماپو يصور فيها معارضى « الهسكالاه » كمجموعة من المنافقين الذين يرتكبون الجرائم فى السر بينما يغلفون أعمالهم هذه بستار من الورع والتقوى وذلك لإيهام أبناء طوائفهم بالمضى خلفهم كما يصور « المتنورين » نموذجا للكمال والأمانة هدفهم تحسين الحياة اليهودية . وبالطبع يجعل الفئة الثانية تنتصر على الفئة الأولى .

ففى روايته هذه يشن ماپو الهجوم على تلك الجماعة التى تدعى الورع تحت ستار اعتناقهم للحسيدية[1] مجسدة فى « رابى جبرئيل » الذى يتملق ويتلون طبقاً لظروف الساعة رغم التظاهر بحرصه الشديد على التمسك بنصوص الشريعة فيقول :

يتسم « رابى جبرئيل » بعقل حاذق وبتعصبه لوصايا الرب وهو يحرص على تعظيم وتبجيل ربه لشعوره بالفخر بشريعته ، كذلك

---

(١) طائفة دينية أول ما ظهرت كانت بين اليهود البولنديين فى القرن ١٨ وتعاليمها تضع الفكر الدينى والاحساس به فى الاعتبار الأول دون الاهتمام بالطقوس الدينية .

فهو يعتمد على الأعمال الطيبة للحسيديم[١] فى مدينة عتيقة والذين يسايرون روح العصر [ويتملقون] من يفوقونهم . إنه من الرجال ثاقبى الفكر . . ولكونه حسيد فهو مجنون ، لكنه يعرف جيداً كيف يكيف الساعة ، ويجد وقتاً لكل غرض . . وقتاً لكى يتعقل ويملى حكما كالجامعة[٢] ، وقتاً ليسلك سلوك الكامل مثل « رابى حنانيا بن دوس »[٣] وقتاً لكى يلقى بأقوال الأماثيل فى بيت عوبديا . كذلك فإنه يجد وقتا لكى يتظاهر كحسيد مجنون ، فيتظاهر بأنه وضيع منكسر الخاطر أمام الأكبر منه مثل « هليل » ويتظاهر بالكبرياء والغطرسة أمام الأصغر منه مثل « شماى » يحب العطايا مثل « أبناء على » وقد تعود على القول بأن كل من يمنح هدية إلى تلميذ حكيم فهو كمن قرب الثمرة الأولى ، هكذا يسند أقواله دائما إلى قانون الشريعة ، وهو صديق فى مسلكه ، ورع فى كل أعماله » .

كذلك نجد تصويراً لمدلول النور الذى استخدمه الأدباء عامة وأدباء ذلك العصر خاصة ليدل على الثقافة والوعى والعقل والمعرفة متمثلا فى قوله : « وقد عهد « جعل » بابنه زيرح » إلى مدرس يفهم

(١) وهم معتنقوا مبدأ « الحسيدية » والكلمة فى صيغة الجمع ومفردها « حسيد » بمعنى ورع .

(٢) أطلق هذا الاسم على سليمان بن داود .

(٣) من جماعة التنائيم .

الكتاب المقدس ويمهد الطريق لنفسه بلغـــة رقيقة ناعمة قائلا :
« لقد رأيت نوراً خفيا فى ابنك بيد أن مدرسه لا يفهم ذلك ، إن فيه لبيت إسرائيل جودة مستترة كثيرة بيد أن معلمه يفسد طريقه ويجعله يكبت حكمته فلا يظهرها . . لقد حان الوقت لكى يشحذ عقله ويثقفه ويصهره فى بوتقة الجدل حتى يخرج كالذهب المنصهر» وكم طرب قلب « جعل » عند سماعه هذا . . منذ ذلك الحين أصبحت أقوال « رابى جبريئيل » ، كقول من نور فيعهد إليه بابنه « زيرح» ليفعل به مايراه صالحا . . وأقول الحق ولا أنكر أن نور العقل قد أشع على « زيرح » لكن فلنرى ماذا فعل به مدرسه » .

ويصور مابو المدرس انتهازيا هدفه الأكبر الكسب المادى من وراء التلميذ ، فهو لم يحاول فهم تلميذه بل فرض أنه حاد عن الطريق المستقيم ومن ثم حرمه نور المعرفة الذى كان قد بزغ بفضل مدرسه الأول فيقول : « إن زارع الكرم يغرس شجراً ويعرف حساب نضجه وتنمينه . . أيقل الإنسان عن شجر الحقل ؟ إن المدرس الأبله لا يكثر من معرفة خطوات تلميذه . . فحين رؤيته « زيرح » قد انحرف عن الصراط المستقيم تأتى له طريق علاجه بحبسه فى غرفة كالمجذوم[1] ومنع نور النهـــار عنه . . نور عقل الإنسان

---

(١) يحبس المصاب بالجذام فى غرفة فلا يختلط بالناس . انظر مشنا « نجيلاه » الفصل الأول .

وشريعة الحياة ، وحرمانه من كل متعة . . بهجة الربيع ، مراعى العشب والزهور . . خليقة الرب التى خلقها من أجل الإنسان . . فمن غيره خلق كل هذه الأشياء . . يمنع كل ذلك عن « زيرح حين ظهور بوادر حميدة وبزوغ براعم هى من غرس معلمه الأول الذى أراد أن يغذيه بروح طيبة فى فجر صباه . . روح النعمة والرضا التى سكبها أنبياء الرب على إسرائيل وذريته . . لكن رابى جبرئيل » اعتبر كل ذلك كنباتات غريبة واستأصلها بروح مضطرمة . . على ذلك فإن « زيرح » قد يتحدث اللغة دون أن يعرف لغة البلد التى يسكن فيها » .

* * *

ورغم أننا نلمس تأثير الأدب والتاريخ العبرى القديم على إنتاج مابو الأدبى ، فإننا نجد تأثره بالمدرسة الفرنسية الروائية واضحاً . . وهذا يدل على احتفاظه وتمسكه بالتراث القديم مع صبغه بصبغة عصرية تتناسب مع روح العصر فيتمكن بذلك من الوصول إلى أذهان الشباب العصريين .

وحديث مابو فى روايته عن «خطيئة سماريا» عن انتصار الخير والعدل يجعلنا نتساءل أيقصد بذلك انتصار الخير والعدل الإنسانى أم اليهودى بوجه خاص .. والراجح أنه يخص بذلك اليهودى فقط

حيث أن اليهود لم يلتزموا حد العدل البشرى عند إقامتهم وطناً على أنقاض أمة بشرية .

وعلى الرغم من أن مايو صور فى روايته هذه مظاهر اللهو وخاصة اللهو الدينى إلا أنه قد جعل الشخصيات تنطوى على الطيبة والفضيلة مصوراً الإغراء الذى يتعرض له اليهودى واحتفاظه مع ذلك بطيبته وفضيلته مما يجعله يستحق المركز السامى الذى يزعم اليهود أنهم عليه عند ربهم .

ويعرض مايو فى « الطائر الملون » نموذجين أحدهما يمثل الخير والمعرفة والآخر يمثل النفاق والزيف وينصر أولهما على الثانى هادفاً بذلك إلى إثبات أن النصرة للخير دائماً محاولا بث روح الخير فى قلوب أبناء طائفته فيصلون إلى السلوك الأمثل، وهو نفس الأسلوب الذى انتهجه أدباء ذلك العصر ليحققوا أحلامهم وقد قاربوا حد المثالية فى سلوكهم وأفكارهم .

ومن أبرز الأدباء اليهود يهودا ليف جوردون .. الشاعر الروسى الذى أطلق عليه اسم « شاعر الدولة » والذى أعتبر الناطق بلسان « الهسكالاه » — التنوير — ولد فى ڤيلنا بلثوانيا عام ١٨٣٠ وتوفى فى سانت بترسبرج عام ١٨٩٢ . نشأ فى أسرة يعتبر عائلها أحد « المتنورين » ، لذلك فقد تمتع بحرية فى التعليم لم يحظ بمثلها أحد من أبناء جيله . وقد تعمق فى دراسة الكتاب المقدس والنحو العبرى، هذا إلى جانب دراسته للتلمود . . وفى شبابه قدمه أحد أقاربه إلى دوائر «المتنورين» فى فيلنا .. فقوى ذلك ميله إلى الدراسات الدنيوية وحذق فى تعلم اللغات البولندية والفرنسية والألمانية . . وعين وهو فى الثانية والعشرين من عمره مدرسا فى إحدى المدارس اليهودية التى تؤسسها الحكومة وذلك فى « بونيفتس » Ponevyez حيث استقر ثمانية أعوام قضاها فى تعليم الأطفال اليهود اللغة الروسية . وكان قبل ذلك بعام قد بدأ يقرض الشعر فألف عدة أناشيد وكتب شعراً حماسيا وقصائد تاريخية معها فى مؤلف واحد نشر فى عام ١٨٦٥ تحت عنوان « أشعار يهودا » وفى عام ١٨٦١ نقل إلى « شافيلى » حيث افتتح مدرسة خاصة للبنات . وحين عين سكرتيراً للطائفة اليهودية

حصل لليهود هناك على تصريح لبناء معبد، كذلك مكنهم من الحصول على قطعة أرض لبناء مقبرة عليها .

كان جوردون يملك القدرة على التنقل فى أدبه من موضوع لآخر بنفس السهولة "وكان قلمه سلس القياد فى الأشعار والقصص كما كان فى كتابة المقالات على السواء، غير أنه اكتسب شهرته من قرضه للشعر . . كذلك كانت له قدرة فائقة على تكييف اللغة وتشكيلها بالصورة التى يرغبها، ولم يكتف باستخدام العبرية الكلاسيكية الخالصة بل استخدم أيضا الهجادا[١] . كما استعان بالمشنا ، وبأدب العبرية الوسيطة فقدم بذلك أسلوبا فريداً مرناً جعل كل التعبيرات الأدبية طوع أمره[٢] .

ويشتمل إنتاجه الشعرى عامة على نوعين أساسين أفرد لكل منهما عصراً معيناً : خيالياً وواقعياً . يضم الأول أناشيداً ، أشعاراً قصصية تاريخية وحماسية تدور حول استثارة همم العناصر اليهودية بصفة عامة ومبادىء واتجاهات « الهسكالاة » على نحو خاص .

---

(١) الهجادا شروح وقصص وتفاسير وأساطير ، كما تحتوى على الأجزاء الغير متعلقة بالقانون فى الكتاب المقدس .

(٢) M. Waxman, A history of Jewish literature, Vol. III, P. 234

وأما الثانى فيشمل قصائد قصصية أخذها من واقع الحياة اليهودية ومشاكلها فى عصره ، ينطوى بعضها على روح هجائية . كذلك فقد ألف جوردون مجموعة من الأساطير ضمها فى مجلد تحت عنوان « أمثال يهودا » .

ومن أشهر مؤلفاته القصصية فى عصره الأول تلك التى اقتبسها من الكتاب المقدس ، منها قصيدتان عن داود أولها « حب داود وميخال » وهى تصور لمحة من حياة داود حين كان راعياً وأحب « ميخال » ابنة شاءول التى ظلت وفية لحبه حتى بعد أن هجرها حين أصبح ملكا ، وماتت فى سبيل حبه تحت الشجرة التى أقسما تحتها عهد الوفاء على الحب الأبدى ، بينما يموت هو منعما فى ترفه فى قصره الفاخر . والثانية «داود و برزلاى» تصور لمحة من حياة داود الملك(١) حين هرب من وجه ابنه « أفشالوم » الذى أعلن تمرده وعصيانه عليه ولجأ إلى جلعاد ، وكان يمده بما يحتاج إليه فى ملجئه أحد أغنياء جلعاد وهو « برزلاى » ، وحين زالت الغمة دعا داود « برزلاى » ليسكن معه فى قصره بالعاصمة لكنه رفض .

ورغم أن كثير من الأدباء قد طرقوا حياة داود ونسجوا حولها القصص إلا أن جوردون بخياله الخصب وقدرته على الوصف صبغ هاتين القصيدتين بصبغة جديدة .

---

(١) موضوعها مأخوذ من الكتاب المقدس ، صموئيل الثانى إصحاح ١٧ .

ومن قصائده التى اقتبسها من الكتاب المقدس أيضا قصيدة « أوسنات ابنة پوتيفيرا » ، التى تسرد حياة يوسف منذ بيع عبداً إلى اليوم الذى أصبح فيه نائباً لملك مصر ، ووقوع سيدة القصر زليخا فى غرامه ومقاومته لها والحب المتبادل الذى نشأ بينه وبين «أوسنات» ابنة الملك ، والقيمة الوحيدة التى تشتمل عليها هذه القصيدة تنطوى فى وصفه للطبيعة وللحياة المصرية فى ذلك العصر .

والواقع أن جوردون فى تعرضه لقصص من الكتاب المقدس يهدف إلى ربط الطائفة اليهودية الحاضرة بالتراث اليهودى القديم قاصداً بذلك تدعيم حضارة اليهود القديمة .

وتنتمى إلى ذلك العصر قصائده التاريخية التى تعبر عن تراجيدية الحياة اليهودية ومنها « بين أسنان الأسود » التى يستهلها جوردون بهجاء ضد زعماء إسرائيل لإهمالهم تلقين أبنائهم فنون الحرب ، داعياً بذلك إلى ضرورة إعداد كل يهودى أكبر إعداد ممكن ليكون محارباً حتى يتقى ظلم المضطهدين فيستطيع الدفاع عن نفسه .

بعد ذلك يروى مأساة محارب يهودى أسر فى الحرب ضد الرومان فى القدس . وقد تقرر إلقائه فى عرين أسد جائع ، فى نفس اللحظة التى يبعث فيها حبيبته « مارثا » جارية لسيدة رومانية اصطحبتها معها لمشاهدة الصراع بين حبيبها وبين الأسد . وفى القصيدة يصور

جوردون ببراعة بشاعة هذا الصراع وتمتع الجمهور بمشاهدته ، ثم فوز الأسد وصعود روح مارثا لتلتقى بروح حبيبها .

وقد أراد جوردون أن يعبر بهذه القصيدة عن كربه البالغ لتصوره أن أمته قد فقدت قوتها وعظمتها إلى الأبد ، غير أنه من جهة أخرى يتناول الكرب الذى تعانيه هذه الأمة ويرمز إلى ذلك فى قصيدته « فى أعماق البحر » بقصة عائلة يموت عائلها وتنفى ابنته وأرملته مع المنفيين من أسبانيا على إحدى السفن ، ويعجب بها قائد السفينة لكنها تصده فيهددها بإنزال اليهود كلهم إلى أرض جرداء فيموتون جوعاً وعطشا ، فتفكر الإبنة فى أمر أبناء طائفتها وتعده بالقبول بعد أن تصل السفينة بسلام . . وعلى أحد شواطىء شمال أفريقيا وبعد هبوط المسافرين قفزت المرأتان إلى البحر حيث فضلتا الموت على العار .

وقد اتخذ جوردون هنا من الإبنة رمزاً لتصوير مدى الظلم الذى يلاقيه أبناء الطائفة اليهودية أينما ذهبوا ، اعتقادا منهم أن هذا الظلم واقع على أبرياء . ويختار جوردون هذه القصص الخيالية حتى يبرز أحداث اليهود المأسوية عبر التاريخ . وهذه هى طريقة اليهود دائماً فى التظاهر بأنهم شعب مضطهد ، ولا سبيل إلى خلاصهم من الظلم والاضطهاد إلا بالتكتل فى وطن واحد ، كذلك فإنهم يهدفون دائماً

إلى استثارة عطف الشعوب الأخرى بالتظاهر بأنهم فئة مضطهدة مظلومة لا تستحق الظلم .

وحين أتهم جوردون بانضمامه إلى الحزب الثورى ونفى إلى مدينة فى شمال روسيا عبر عن حاله فى قصيدة تاريخية أخرى بعنوان « صدقياهو فى السجن » ، وتروى مأساة صدقياهو آخر ملوك يهودا الذى أسر ورأى أطفاله يذبحون أمامه قبل أن يصاب بالعمى .. وقد جعل جوردون من صدقياهو لسان حاله فجعل ينطق بمناجاة شكوى وتمرد على الأحوال القائمة وسيطرة رجال الدين على الأمور وقرب القضاء على المسحة الدنيوية التى أضفتها « الهسكالاه » وهو بهذه القصيدة يعبر عن سخطه هو على الربانين[1] ومعارضى « الهسكالاه » .

وقد كان الربانيون يعتقدون أن الدعوة إلى تحرير الدين اليهودى وتاريخ اليهود من الارتباط الوثيق بالدين والطقوس الدينية تعتبر دعوة خطيرة لبعثرة شمل اليهود فى حين أن دعوة « الهسكالاه » تهدف إلى تكتيل اليهود ودفعهم نحو التقدم ولكن بطريقة عصرية لا تهمل الدين فى باطنها لأن المصدر الأساسى لكافة كتابات اليهود وأشعارهم وقصصهم وأفكارهم يرجع إلى الدين وفى الوقت ذاته

(١) معلمو الشريعة والمتعمقون فى القوانين والوصايا اليهودية .

تهدف إلى الاستفادة من التقدم العلمى والحضارى الحديث المرتبط بدول أوروبا .

وقد أدت سياسة الاسكندر الثانى المتساهلة تجاه اليهود إلى زيادة عدد المتنورين ، فتحـــولوا بذلك من مجرد الدفاع عن حركة « الهسكالاه » إلى شن هجوم على نوعية حياة الجيتو مطالبين بإجراء الكثير من التعديلات والإصلاحات ، وقد كان جوردون على رأس هذا الهجوم الذى وجهه فى سلسلة من المقالات التقريعية ضد زعماء المتدينين الأرثوذكس لمعارضتهـم حركة « الهسكالاه » كما هاجم الربانين لتعصبهم فى اتخاذ القـوانين والشرائع وكذلك فى الالتزام بحرفيتها عند تطبيقها .

وقد ألف لهذا الغرض عدة قصائد منهـا « محور العجل » [١] وتروى قصة سائق رقيق الحال بذل جهداً مضنياً لتغطية نفقات عيد الفصح ، وحين جلست العائلة بتلهف الفقراء لتناول الوجبة الرئيسية فى العيد ، اكتشفت الزوجة وجود حبة شعير فى الحساء مما يجعله غير نقى (حومتس) طبقا لقوانين الشريعة ، وتريد الزوجة استشارة الربانى فى الأمر لكن الزوج يمنعها خشية أن يفقد الوجبة التى عانى

(١) الاسم مأخوذ عن اسطورة التلمود (Tri gittin, 55b) التى تسرد قصة مدينة عظيمة هدمت من جراء كسر فى محور العجل

الكثير من أجل الحصول عليها ، وحين تكرر الأمر فى اليوم التالى ذهبت الزوجة خلسة لتستشير الربانى الذى التزم بالنصوص والقواعد التعسفية فى الشريعة وقرر حرمان العائلة من هذه الوجبة لكونها غير نقية أو « حومتس » . وقد أدى هذا التطبيق التعسفى الجامد لحرفية الشريعة فى النهاية إلى مصيبة حلت بالعائلة بعد أن تفرق شملها.

وإن كان جوردون فى ثورته ضد الربانيين فى هذه القصيدة لم يهتم بإنتاج قصيدة شعرية متكاملة فإن قصيدته الهجائية الأخرى « مسألة ياء » قد انطوت على قيمة شعرية أكبر من سابقتها . وتسرد القصيدة قصة امرأة جميلة تزوجت من عالم تلمودى شاب اسمه « هليل » يعيش عالة على أبيه ، وحين يفلس الأب يضطر الزوج للسفر لطلب الرزق ويترك زوجته وأولاده لمدة سنوات ، فتعود الزوجة إلى بيت أبيها ثم يموت الأب وتبقى بدون عائل ، لكنها تقابل شابا أراد الزواج منها ، فعمل على الحصول على الطلاق من زوجها الأول وحين يأتى بقسيمة الطلاق يكتشف الربانى الذى يقوم بالمراسيم أن اسم الزوج الأسبق ورد فى القسيمة بدون كتابة الياء فيرفض صلاحيتها لاعتقاده أنها تخالف القانون الذى يلزم كتابة هذا الاسم التلمودى بالياء.

— إن كان النص غير مشكل كما الحال فى قسيمة الطلاق — ويترتب على تمسك الربانى بحرفية الشريعة اليهودية فشل الزواج وبقاء

الزوجة « عجونا » أى مهجورة بلا زوج ولا عائل لها ولأولادها مما يعرضهم لحياة أخطر .

ويتضح لنا من قصائده التى اتسمت بالواقعية أن جوردون قد جعل من نفسه واعظا ومرشدا لأبناء شعبه يوجههم ويوقفهم على مواطن التخلف فى حياتهم وعلى الأسلوب الذى إذا اتبعوه لوجدوا الطريق مسدودا أمام التطور والتقدم والقوة التى تحقق أحلام اليهود منذ آلاف السنين .

ومما كان يحز فى نفس جوردون أن الجيل الجديد قد حاد عن الدين وعن اللغة العبرية ، لذلك فقد كرس قلمه وفكره لمحاولة انتشالهم من مصير الإلحاد بالدين والجهل باللغة ، وذلك عن طريق توضيح مبادىء « الهسكالاه » التى يعتنقها ، وتعتبر قصيدته « استيقظ يا شعبى » التى كتبها عام ١٨٦٣ نموذجا لإنتاجه الأدبى وتجسيداً صادقاً لآرائه وأفكاره ومبادئه وهى فى الواقع تعتبر أيضاً نموذجا دعائياً لحركة « الهسكالاه » ففيها يستحث اليهود على النهوض من غفلتهم ونفض غبار الاستسلام كما يطالب أبناء طائفته بضرورة الاندماج ومجاراة الشعوب التى يسكنون معها ومحاكاتها فى طلب البحث والعلم كما أننا فى ختام القصيدة نجد الجملة التى اتفق عليها لتكون شعاراً « للهسكالاه » ، وهى « كن رجلا » قد نالت تعديلا وتخصيصا

من جوردون فهو يطالب اليهودى بأن يكون رجلا عاديا فى الخارج فقط أما فى مسكنه فيجب عليه الالتزام باليهودية . وفى الواقع أن فى هذا المصطلح تناقضا أو أن اليهودى حسب معتقداته يدعى أنه يفوق البشر فكيف يكون يهوديا ورجلا عاديا فى نفس الوقت . لكن جوردون يحاول بذلك ضرب عصفورين بحجر واحد إذ يطلب من اليهودى أن يحافظ على دينه ويحتفظ بعاداته وتقاليده داخل مسكنه أما خارجه فله حق التمتع بحقوق الرجل العادى والتظاهر بالمماثلة مع بقية الشعوب .

وتقول القصيدة :

استيقظ يا شعبي استيقظ
فإلى م سيطويك النوم
فالليل مضى والشمس على صدر الأفق
استيقظ وارفع عينيك
هناك . . هنا
واعرف أيامك ومكانك

هل حقا قد وقف الزمن
واسترخت أبداً أجنحته
من يوم خرجت إلى أنحاء الأرض

ام أن ألوف السنوات
اللاتى لم تقبل . . قد ولت
مذ ولت عنك الحرية
وغدوت حليف التجوال

ويؤكد جوردون أنه قد مضى زمن طويل منذ ذلك التاريخ حتى استقر بعض من اليهود فى أوروبا التى تشع فيها أجواء باردة وهو لا يقصد بذلك الطقس بل يقصد طريقة التعامل التى يلقاها الشعب فى أرض على وسعها فى نظره أضيق من اللحد لكنها تتميز عنه بأنها مضاءة بنور الحكمة من العلم ، وفى ذلك يقول :

من ذاك اليوم . . إلى الآن
كم مرت أجيال عدة
مذ كنا ثم تفرقنا
وتقطعنا جيلا جيلا
كم جاءت أحداث ومضت
وتغيرنا
وأحاط بنا جو بارد
يا شعبى استيقظ
فحيث نعيش الآن ونولد

فى أوروبا . . هل تحسب ؟
أوروبا أضيق جزء من العالم
لكن لنور الحكمة . . تسمو

وتطبيقاً لمبادىء « الهسكالاه » فإن جوردون يطالب أبناء طائفته بضرورة الاندماج ومجاراة الشعوب الأخرى وأن يرفع الكلفة بينهما ، وهو يؤكد أن هذه الشعوب تبغى معونته وتود محو الظلم والاضطهاد الواقعين عليه ، لذلك فهو ينادى بمبادلتهم حسن المعاملة ، كما أنه يستحث أبناء جيله من اليهود على محاكاة الشعوب الأوروبية فى طلب البحث والعلم على أن يطلب كل فرد المزيد من المعرفة كل حسب ميوله ورغباته حيث يقول :

وأرض الرفاهة فتحت لك
وبنوها أخوتك ينادونك
فإلى م ستبقى بينهمو مثل الصيف
وتسير على عكس (رفاقك)

ليريحوا ظهرك من عبئه
وليرفع عن عنقك نيره
وتعانق كفك أيديهم

يعطونك حباً وسلاماً
ارفع رأسك ، قوم ظهرك
عانقهم بعيون الحب
وامنح قلبك للحكمة . . للمعرفة
كن شعبا موفور الجدة
بادلهم لحظات تأمل
أصحاب الفهم جميع العقلاء
يتعلموا الحكمة . . صاروا
عمالا فنانين . . كل صاحب حرفة
الشجعان جنود بالجيش
عشاق الأرض . . الفلاحون
يشترون حقولا ومحاريث

ويختتم جوردون قصيدته محدثاً أبناء طائفته بقوله المأثور :

هيا امض لبيت المال احضر قوتك
خذ حقك من مال الدولة
كن رجلا عند خروجك ويهوديا فى مجتمعك
ثم شقيقا لبنى بلدك . . عبداً بين أيادى ملكك
استيقظ يا شعبي استيقظ . .

إن جوردون قد قصر جهده فى كل إنتاجه الأدبى الذى تمثله هذه القصيدة للتعبير عن آراء « الهسكالاه » ومبادئها ، حيث ينادى أبناء شعبه بإنعاش النشاط الأدبى والعلمى محتذين فى ذلك حذو الشعوب الأوروبية المتقدمة ويطالبهم بإحياء اللغة العبرية الكلاسيكية باعتبارها عماد الدين والتعامل وتطويرها بما يتناسب مع الفكر الحديث والعلوم الحديثة .

والواقع أن جوردون فى حماسه هذا وتكريس قلمه وجهده لتحقيق مبادىء « الهسكالاه » كان يمسك بآخر خيط يصل هذه الحركة بالوجود ، انقطع من بعده حيث أدار معظم معتنق حركة « الهسكالاه » ظهورهم لها وبدأوا يؤيدون ويدافعون عن حركة جديدة سميت بالحركة القومية ، فطفق جوردون يسكب يأسه فى قصيدة كتبها عام ١٨٨٠ تحت عنوان « لمن أعمل » حيث يتساءل لمن يبذل كل ذلك الجهد ، أهو فى سبيل الجيل القديم الذى عزف عن طلب المعرفة أم للجيل الحاضر الذى يهمل دراسة العبرية وأدبها حيث يقول :

لازلت أكتب الشعر سراً
قلبى لم يزل يلفظ ويمينى يكتب
يكتب شعراً وبلغه منسية

ما خلاصى ما غرضى وما هدفى
ولمن أكد أجمل سنوات عمرى
وأحرم نفسى من السعادة والراحة

آبائى الملتصقون بالرب وبشعبهم
يعملون فى التجارة وبالوصايا كل يومهم
طرحوا المعرفة نبذوا الشعر
« الشعر هرطقة وهلاك
والسكن مع شاعر محرم »
هكذا ينتهزونا ، يتعقبونا فى سخط

وأبناؤنا ، الجيل القادم بعدنا
يتنكرون لنا منذ فجر صباهم
من أجلهم تنزف جراح قلبى
فإذا هم يسيرون قدما سنة تلو أخرى
من يعرف الحد ، إلى متى ، إلى أين
ربما إلى مكان ما ، من هناك لا يعودون
فلمن عندئذ أعمل . أنا الرجل

ألقلة الباقية من أبناء عقر
الذين لم يضعوا أغنية صهيون موضع تقريع
أواه ، سنابل وحدانية ، من يعرف أين هى
من يرفع رأسهم ويحصى عددهم
أحدهم فى القرية والآخر فى المدينة

لكم أسفك روحى ، أسكب الدمع
هلم أبكى على أكتافكم فيكف ألمى
أعانقكم أقبلكم يا عشرات الألوف
أواه من ينبىء بالمستقبل ، من يعرفنى هذا
حتما سأكون الأخير فى شعراء صهيون
وأنتم الأخيرون من قراء صهيون

* * *

وهكذا يتضح لنا من إنتاج جوردون الأدبى تزعمه لفكرة إعداد الشباب اليهودى أدبياً وعلمياً وثقافياً بل وإعداده إعداداً حربياً ليبلغ مبلغ الكمال . . وحين نراه يكشف بقسوة عن عيوب الحياة اليهودية ومواطن التخلف فيها ، فهو يهدف من وراء ذلك مد يد العون لأبناء طائفته وهدايتهم إلى طريق التطور والتقدم

فيتخلصوا من كل عيب ويغدون جديرين مستقبلا بالمخطط اليهودى لتحقيق آمال اليهود .

إن جوردون ينادى بمحاكاة الشعوب الأوروبية ومجاراتهم والاستفادة من أسلوب حياتهم وتطور معيشتهم وذلك لغرض تطوير اليهودى وتقدمه مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بشخصيته ويهوديته تمهيداً لتكوين قوميته .

تعقيب :

إن تحليلا لمبادىء حركة « الهسكالاه » — التنوير — ينم عن أنها حركة وصولية وانتهازية، فهى حين تدعو إلى مقاومة الانعزالية تستهدف إخراج اليهود من وضع يؤدى بهم إلى التخلف فى جميع المجالات مما قد يسىء إليهم مستقبلا كشعب يريد أن يكون لنفسه قومية ووطن ومستقبل .

أنها تستهدف من الاستفادة بعلوم الغرب وتطوير وتحرير عقلية الشعب اليهودى ، وذلك تمهيداً للحركة القومية ، فمن الأفضل لهم أن يقيموا وطناً وهم أقوياء متقدمون مثقفون عن إقامته وهم فى عداد المتأخرين غير المتنورين .

كذلك فإن هذه الحركة تعتبر دعوة مقنعة بدت فى ظاهرها

دعوة تحريرية لكنها فى المضمون دعوة لإحياء التراث العبرى القديم حيث أن أدبها يرتكز دائماً على أسس دينية ، يستمد قيمه وأخلاقياته من التراث اليهودى القائم على تمجيد اليهود كسلالة وكدين .

إن أغلب الإنتاج الأدبى الذى نشر فى هذه الحركة كان باللغة العبرية مع أنها لم تكن من اللغات الحية المستخدمة فى ذلك العصر .. وفى ذلك دلالة على أنه بالرغم من عملية التطوير والانفتاح إلا أن الأديب منهم يهدف إلى ربط اليهود بالتراث اليهودى وإحيائه . ومن ناحية أخرى فيه دلالة على مخطط الشعب اليهودى الذى انتهى بالحركة الصهيونية وتكوين الشعب الإسرائيلى القائم أساسا على الدين . فهم آنئذ كانوا يخدمون المستقبل عن طريق إثراء اللغة العبرية من الآن — من عصر الهسكالاه « التنوير » — فيأتون بلغة قوية متطورة لا بلغة ميتة . . يدل على ذلك أنه عند إنشاء الوطن القومى اليهودى أصبحت اللغة العبرية هى اللغة الرسمية .

إن حركة « الهسكالاه » — التنوير — كانت قائمة على التطوير ، لكنه تطوير من حيث الشكل لا المضمون ، فمن ناحية الشكل قصد بها مسايرة العصر حتى تكون فكرة مقبولة أمام الرأى العام . أما من ناحية المضمون فهى قطعا قائمة على الفكرة التى تشبث بها

اليهود طويلا من أنهم طراز خاص من الناس وأنهم شعب الله المختار لذلك فقد حرص الأدباء على أن يكون الأدب العبرى أدب دينى رغم مظهره الدنيوى . . وهذا أبعد ما يكون عن التفكير الإنسانى السليم الذى يجب أن يصدر من مفكر أو فيلسوف أو شاعر كبير يجب أن يقصر تفكيره على معالجة قضايا إنسانية بغض النظر عن كونها قضايا يهودية أو غير يهودية . . ولكننا إذا ألقينا نظرة على أدب ذلك العصر فإنا نجد كل الموضوعات الأدبية — شعراً أو نثراً — تدور كلها حول قضايا الإنسان اليهودى، وليس الإنسان كإنسان .

* * *

الحركة القومية

تقدمة :

لقد كان هدف « الهسكالاه » — التنوير — الرئيسى نشر المعرفة الدنيوية بين اليهود . وقد اهتم الجيل الجديد فعلا بتحصيل العلوم الدنيوية، لكنه كان يهدف بذلك إلى تحسين أحواله الاقتصادية والتمتع بالمساواة مع الشعوب الأوروبية . لذلك فإن إيديولوجية « الهسكالاه » قد فشلت وانهارت كقوة قيادية لليهود .

وإن كان أصحاب هذه الحركة يعتقدون أنهم فشلوا فى حركتهم ودعواهم ، فإن المتأمل والباحث يستطيع أن يتبين بوضوح أنها لم تفشل بهذا المعنى وأنها نجحت إلى درجة ما فى دفع الحركة اليهودية خطوة نحو الأمام فى سبيل تحقيق حلم اليهود القديم فقد مهدت الطريق لحركتين أساسيتين فى التاريخ اليهودى تعتبران مرحلتين لحركة واحدة ، تسمى المرحلة الأولى بالحركة القومية والثانية بالصهيونية .

الحركة القومية :

انقلب الأدباء الحديثون على سالفيهم ، وراحوا يهاجمون أفكارهم ومبادئهم فى صورة حركة جديدة سميت بالحركة القومية . وقد جاهد

زعماء « الهسكالاه » وعلى رأسهم جوردون — فى سبيل إبقاء حركتهم قائمة ، غير أنهم — باستثناء قلة — ما لبثوا أن انضموا إلى الحركة الجديدة حين بدا لهم الأمل فى التحرر على وشك الضياع .

قامت هذه الحركة فى روسيا حوالى عام ١٨٧٢[١] . وكان من العوامل التى أدت إلى قيامها الروح القومية التى سادت أوروبا فى ذلك العصر والتى كان لها صداها فى تغيير الحياة اليهودية ، وإنهاء حياة الجيتو ، وخروج اليهود من عزلتهم الاقتصادية بعد تطور الصناعة واضطرارهم للعمل فى المصانع ، وتحسين المواصلات مما سهل الاتصال بين المدن الصغيرة والمراكز اليهودية فى المدن الكبيرة وقد دعمها انتشار الاشتراكية بين العمال اليهود[٢] .

ومبادىء هذه الحركة تتلخص فى تقوية الروح القومية عند اليهود مع عدم إغفال الاستفادة من أسلوب الحياة الأوروبية وتطور المعيشة فى أوروبا ، كما كانت تهدف أساساً إلى استيطان فلسطين وجعلها موطنا قوميا لليهود .

---

(١) من الصعب بالنسبة لشعب مشتت كاليهود تحديد فترة زمنية لعصر من من عصوره ، لذلك فإن التاريخ يكون على وجه التقريب .

(٢) انظر James Parkes, A history of Jewish people p. 180

وقد واجهت الحركة القومية معارضة شديدة من قبل مؤيدى « الهسكالاه » الذين رأوا أن إقامة مستعمرات فى فلسطين سوف يقود حتما إلى التعصب الدينى ، وفى ذلك هدم شامل لمبادئهم الدنيوية.

يبدو أن هدف « الهسكالاه — التنوير » القريب هو تقوية اليهود وتنويرهم وتثقيفهم عن طريق الاستفادة من خبرات الشعوب الأوروبية وتطورها وتقدمها الفكرى والتكنولوجى والصناعى إلخ. ولم يكن يعنيهم فى هذه المرحلة الضغط على تكوين وطن قومى لهم باعتبارها مرحلة تالية وأن الدعوة للقومية اليهودية والوطن القومى فى ذلك الوقت قد يصبح معوقا لقوة اليهود فيما بعد ولتحقيق آمالهم ولذلك نجدهم كما نجد زعمائهم معارضين لحركة القومية اليهودية قبل نضج اليهود وتقدمهم . والدليل على هذا تركيز حركة « الهسكالاه » التنوير على التراث الدينى اليهودى وكان أدبهم كله يدور حول محاور مختلفة وإن كانت جميعها تمجد التفكير اليهودى والخصال اليهودية ، فقد سبق أن وضحنا أن أدبهم من نثر وشعر يدعو إلى التنوير لكن بقصد تكوين الشخصية اليهودية ، حتى يمكن أن يكونوا مستعدين فى الوقت المناسب لتحقيق آمالهم الكبرى فى الوطن القومى .

كذلك ناهضها أصحاب التفكير والاتجاهات الأرثوذكسية من اليهود لاعتقادهم بأنها ستغير مفهوم الحياة اليهودية ، ومن جهة

أخرى عارضتها الجماعات التى لم تر فى مبادئها حلا للمشكلة الاقتصادية لليهود .

وقد خطت الحركة ببطء شديد تجاه تحقيق أهدافها وذلك لنقص المال والبشر اللازمين لغرض الاستيطان . وسرعان ما أمدهم هم البارون Edmond de Rothchild (الذى عرف باسم الكريم المشهور) بالمعونة المالية التى شجعتهم على الهجرة إلى فلسطين وإقامة مستعمرات جديدة هناك .

وإذا تحدثنا عن الحركة القومية فلا بد أن نتعرض للحديث عن بيرتس أو بيتر سمولنسكين (١٨٤٢ — ١٨٨٥) الكاتب الروسى الذى كان أول من فكر وجرأ على مهاجمة حركة « الهسكالاه » وعرض مبادئه التى تقوم عليها الحركة القومية . درس فى « اليشيفاه » — الأكاديمية — وتعلم الروسية . وفى عامه العشرين سافر إلى أوديسا حيث كان يعلم العبرية ويدرس اللغات الحديثة والموسيقى .

وتنحصر مبادئ سمولنسكين القومية فى كتابه الذى نشر عام ١٨٧٢ بعنوان « شعب العالم » وهو أول كتاب عبرى ينشر أفكار الخلاص[1]

---

(١) يعتقد اليهود أن مسيحاً سيظهر ويخلصهم من أيدى الشعوب ويعيدهم إلى فلسطين التى أطلقوا عليها اسم منطقة الخلاص .

ففيه أعرب سمولنسكين عن اعتقاده بأن اليهود ليسوا مجرد طائفة دينية بل أمة وأن منطقة الخلاص هى تلك التى سيحقق فيها اليهود تحررهم السياسى والأخلاقى ، كما دحض وجهة نظر مندلسون التى تتلخص فى أن اليهودية ليست سوى مذهب دينى لا تكون أمة .

وقد انحصر أمله فى رئاسة تحرير نشرة دورية باللغة العبرية حيث حققه فى فينا عام ١٨٦٨ بإصدار النشرة الشهرية « هشحر » الفجر وقوامها مناهضة الظلامية أى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة ، وإثارة الشعور القومى فى قلب الشباب اليهودى ، والاهتمام باللغة العبرية كلغة قومية .

وقد بدأ اهتمام سمولنسكين باستعمار فلسطين عام ١٨٨٠ حين كان « الاتحاد الاسرائيلى العام » يشجع هجرة اليهود من روسيا إلى الولايات المتحدة ، فوجه هجومه على ذلك فى مقال نشرته « الفجر » ونادى فيه بحتمية إقامة مجتمع يهودى فى فلسطين .

وقد أحدثت أعمال سمولنسكين صدى ظهر تأثيره فى جهود ليوبنسكر (١٨٢١ — ١٨٩١) الذى ضمن مبادئه فى كتاب نشر عام ١٨٨٢ — بعنوان « التحرر الذاتى » والتى تتلخص فى أن اليهود لن يعتبروا متساويين مع الشعوب الأخرى طالما هم مشتتون بلا وطن ، وأنهم لا بد وأن يناضلوا بأنفسهم من أجل تحقيق تحررهم الذى

سيقودهم حتما إلى إقامة دولة يهودية مساوية لحكومات الشعوب الأخرى[١] .

الأدب العبرى فى عصر الحركة القومية :

ينحصر هدف الأدب فى عصر الحركة القومية فى بث الثقافة القومية عند اليهود . وقد تميز بأنه دنيوى بيد أن العنصر الدينى يتواجد أحياناً وخاصة فى المقال والأبحاث التاريخية والفلسفية . كذلك فإنه يتسم بطابع دعائى لأهداف الحركة ذاتها .

وقد رأى الأدباء أن رفع اليهود إلى مستوى الشعوب الأوروبية لن يأتى إلا بوصول أدبهم إلى مصاف الآداب الأوروبية الحديثة . لذلك فقد تشبعوا بروح تلك الآداب وتأثروا بالتيارات السائدة فيها كالواقعية ، الطبيعية والغزل فحاكوها وأصبحت من سمات الأدب العبرى فى ذلك العصر .

وقد تغير اتجاه الأدب فى هذه الحقبة ، فغدا يعبر عن اتجاهات وميول اليهود العصريين الذين تركوا حياة الجيتو وأصبح لهم آراء ومفاهيم مختلفة فى الحياة . إن الأدب لم يقتصر على البحث فى الكتاب المقدس واستخراج مثل منه ترفع القيم العامة عند اليهود ، بل اتجه إلى روح العصر ذاته معبراً عن التيارات المختلفة هادفاً إلى إثارة

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٧٩ .

الحماس تجاه فلسطين لغرض استيطانها وإحياء اللغة العبرية كلغة قومية ، لذلك فإن الأدب فى تعبيره عن كل هذه الاتجاهات المختلفة جاء غير متجانس .

ولم يتجه أدباء ذلك العصر إلى نقد الشخصية اليهودية وإبراز عيوبها كما فعل أدباء « الهسكالاه » ، بل اهتموا بإبراز نواحى الجمال فيها ، فطفق الشعراء والكتاب يدرسونها ليستخلصوا مميزاتها ونواحى المثالية فيها ليضمونها فى أدبهم ، كذلك فقد صور أدباء القومية شخصية « الحسيد » والصديق على أنها مثالية على عكس الصورة السيئة التى رسمها أدباء « الهسكالاه » لهاتين الشخصيتين . . وقد أدى كل ذلك إلى خلق تيار جديد فى أدب ذلك العصر وهو الخيالية .

وقد ظهر فى ذلك العصر الأدب الشعبى حيث وجه الأدباء اهتمامهم إلى دراسة وتحليل ظروف الفرد اليهودى بعد أن كان نكرة فى أدب عصر « الهسكالاه » الذى قصر اهتمامه على « المسكيل — المتنور » نفسه . ومن هنا حل الرجل العادى محل « المسكيل » فى بطولة الروايات .

وقد تشعب الأدب فى ذلك العصر فشمل الاتجاهات الاجتماعية ، الاقتصادية والفلسفية كما اهتم بتمجيد التراث اليهودى القديم .

ومن الجدير بالذكر أن الإنتاج الشعرى فى ذلك العصر قد فاق

النثر فى قدرته على الخلق والإبداع ، فقد توسع الشعراء فى تناول أغراض كثيرة فى مجال الشعر بعد أن كانت قاصرة قبل ذلك على كل ما يتصل بالتاريخ اليهودى والتراث اليهودى حيث تناولت الطبيعة والإنسان فى ظروفه وحياته النفسية والاجتماعية وعلاقته بالآخرين . وإن كان هذا التجديد والتطور يهدف إلى إظهار الشخصية اليهودية فى المواقع والمجالات المختلفة على أنها شخصية سمحة إنسانية غير متعصبة .

* * *

لقد أثرى شعر ذلك العصر الأدب العبرى الحديث بالشعر الوجدانى وبقصائد روائية وأخرى قصيرة كذلك بقصائد قصصية تاريخية .. إن شعراء ذلك العصر لم يكتفوا بالتغنى بالماضى بل قصروا اهتمامهم على العوامل النفسية التى تعتمل فى حياة اليهودى كفرد فى أمة من حزن وفرح . من يأس وأمل .

وفيما يلى نعرض لنماذج من إنتاج أديبين فى هذا العصر يمثل أدبهما المعالم الأساسية لهذه الفترة . أولهما ، حاييم نحمان بياليق الذى اتخذ من الدين عماداً للتعبير عن أهدافه القومية والآخر شاءول تشرنيخوفسكى الذى اعتمد على النزعة الدنيوية عنده لتحقيق نفس الهدف .

حاييم نحمان بياليق

ولد عام ١٨٧٣ فى رادى بإقليم فولينيا الروسية[1] نشأ عن أسرة معدمة رقيقة الحال فقضى طفولته وحيداً تشغله الأحلام والآمال الكبار ، ويتأمل جمال الطبيعة من حوله محاولا الوصول إلى أسرارها.

---

(١) انظر Ribalow, The flowering of the nodern Hebrow literature, p. 25.

وتوفى أبوه وهو فى السابعة بعد أن كان قد قضى سنة واحدة فى « الحيدر — الكتاب » فذهب ليعيش عند جده الميسر الذى اشتهر بالورع وحبه للعلم فوجد بياليق هناك مرتعا خصباً للتزود بالعلم والمعرفة فى تلك السن المبكرة وبدأ ثقافته أول ما بدأ بقراءة كتب عديدة فى الأدب العبرى فى مراحله وفروعه المختلفة ، كما قرأ كتباً عن الفلسفة والأخلاقيات وأخرى عن التصوف. ومن جهة أخرى فقد درس التوراة والتلمود تحت إشراف المدرسين بيد أنه كان التلميذ الوحيد هناك فتمخضت وحدته عن أفكار وتطلعات تتعلق بالحياة وبمستقبل الشعب اليهودى عامة ومستقبله خاصة .

وفى مطلع شبابه قرر الذهاب إلى أوديسا — مركز النشاط الأدبى — وهناك درس اللغات الألمانية والروسية واطلع على الكثير من الآداب فى هاتين اللغتين . ثم استقر بين عامى ١٨٩٧ — ١٩٠٠ فى بولندا حيث اشتغل بتعليم الأطفال اليهود فى Pietrikow ثم اتجه ثانية إلى أوديسا حيث عمل كمدرس فى مدرسة العبرية الحديثة .

بدأ بياليق إنتاجه الأدبى فى سن مبكرة حيث كتب قصصاً ومقالات غير أن شهرته انبعثت من إنتاجه الشعرى . وقد حاول من خلال شعره إحياء اللغة العبرية فأكثر من الاستعانة بعبرية

الكتاب المقدس . كان كلاسيكيا فى أسلوبه مسيطراً على اللغة العبرية فى كل صيغها . وقد تميز شعره بأنه يمثل آمال وأحلام أبناء طائفته التى ينتمى إليها ، كما سيتبين لنا من النماذج التى سنعرضها فيما بعد .

أعتبر بياليق الشاعر القومى لليهود حيث تغلغل ببصيرته الشعرية فى أعماق حياتهم ، وجعل من نفسه داعياً يبث فيهم الأمل ويستحثها لتناضل من أجل الوجود عن طريق بناء مجدها وضمان استقرارها فى الأرض المقدسة .

وأقوى تعبير لبياليق عن قوميته برز فى قصيدتيه «إلى العصفور» و «هبة شعب» . نشرت الأولى عام ١٨٩٢ فى الحوليات اليهودية «هپرديس — الفردوس» فلاقت صدى هائلا فى الدوائر اليهودية بما انطوت عليه من روح القومية . وفى هذه القصيدة استخدم بياليق العصفور رسولا يحكى له عن أرض أحلامه .. وهو يحسد العصفور على قدرته فى التنقل بحرية والذهاب إلى الأرض المقدسة حيث يتمتع فيها بدفء الروح الذى يرمز إليه بدفء الشمس ، بينما يبقى هو منكسر الجناح فى أوروبا الباردة ، يقصد بذلك الخالية من مظاهر الدفء والحنان حيث لا يجد عطفاً عند أحد بل ظلما واضطهادا فقط فيعبر عن ذلك فى فقرات متباعدة بقوله :

سلام لعودتك عصفورى العزيز

من بلاد الدفء إلى نافذتى
كم تاقت نفسى إلى صوتك اللذيذ
فى الشقاء حين تركت مسكنى

غنى يا عصفورى العزيز ، تحدث
عن الأرض البعيدة ، عن الأعاجيب
أهناك فى هذه الأرض الجميلة
تشيع المتاعب والشرور والصعاب

أتحمل لى سلام من اخوتى فى صهيون
من أخوتى البعيدين الأقرباء
أوه سعداء ، أيعرفون حقاً
أنى أقاسى ، أقاسى الكآبات

هل يعرف أخوانى كم كثر هنا أعدائى
أوه ، إنهم كثيرون أمامى
تغنى عصفورى بأعاجيب من الأرض
يسكن الربيع فيها أبداً

وأنا ماذا أحكى لك يا عصفورى العزيز
منى ماذا تأمل السماع
من أنحاء أرض باردة لن تسمع غناء
فقط نواح وأنين وشجن

أأحكى عن الصعاب التى فى البلاد
كل ما أحكيه معروف ومسموع
آه ، من يحصى المصائب التى مضت
والمصائب التى ستحل

وهو فى هذه القصيدة يعبر عن شوقه الزائد للأرض المقدسة التى يعتقد أن إخوانه الذين سبقوه إليها يعيشون فى سعادة دائمة متمتعين بدفء التوراة . إنه يسأل العصفور بلهفة ليحكى له المزيد عن الحياة هناك ، مقارناً إياها بالحياة التى يحياها هو فى أوروبا والتى يعتبرها مليئة بالصعاب والمذلة والهوان حيث يقول :

أتحمل لى سلاما من الأرض
من السهل ، من الوادى ، من رؤوس الجبال ؟
هلا رحمت ، هل أسفت يا رب على صهيون
أو ما زالت معقل القبور

وسهل الشارون[1] وهضبة اللبان
هل يعطوا مرهم ، نردهم ؟
أيوقظ الشيخ فى الغابات
لبنان النائم النعسان

أينزل الطل كاللؤلؤ على جبل حرمون
أم ينزل ويسقط كالدمع
كيف حال الأردن ومياهه الزاهرة
وحال الجبال كلها ، الهضاب

هل أزيح من عليها السحاب الكثيف
الذى يبسط ظلاما كثيفا ، ظل الموت
غنى يا عصفورى على أرض فيها وجد
آبائى الأحياء[1] . . الموت

ألم تذبل الزهور التى زرعتها

(١) اسم خاص لسهل الميشور غربى إسرائيل على ساحل البحر الأبيض المتوسط.
(٢) يقصد المجموعة الأولى التى هاجرت إلى فلسطين .

مثلما ذبلت أنا
أذكر أياما تورقت مثلهم
ولكنى الآن شخت ودالت قواى

وأخوتى العاملون الزارعون فى دمعه
هل حصدوا العومر[1] وسط الترانيم
ليتنى أملك جناحا فأطير إلى أرض
يزدهر اللوز فيها والنخيل

ويختتم بياليق قصيدته بتشجيعه للعصفور لأن ينطلق حتى لا تعوق قواه عن العمل ولأن يرفع عقيرته وينادى بالحرية فقد حان الوقت ليكفوا عن البكاء لكى يعملوا ويجتهدوا فى سبيل تحقيق أملهم حيث يقول :

تجول يا عصفورى إلى جبلك ، صحرائك
سعدت لأنك تركت خيمتى
لو سكنت معى لزالت قدرتك على الطيران
بكيت مر البكاء على مصيرى

---

(١) القمح .

لا بكاء ولا دمع لى شفاء
إن هؤلاء لا يشفون كربتى
عيناى عشت كثرت دموعى
ها قد أصيب قلبى

جفت الدموع وحانت الساعة
ولم تقدر نهاية لحزنى
سلام كبير عودتك يا عصفورى العزيز
ارفع صوتك وغن

نتبين من القصيدة المعالم الأساسية فى فلسفة واتجاهات بياليق صاغها صياغة رقيقة ومثيرة . . فالواضح أنه يحلم فيها بآمال اليهود فى العودة إلى أرض الميعاد بل وبتحقيق الأهداف التوسعية لليهود . ويذكر فيها أيضاً اليهود بأنهم بحياتهم فى هذه الأرض سوف يتخلصوا من الذل والعبودية والمهانة فى حياتهم بالبلدان الأخرى . كذلك فإنه يستفز همم اليهود ويحرك شوقهم للعودة إلى الأرض المقدسة ، فذلك فى نظره حل لمشكلة اليهود متناسياً أن فى استقرارهم هناك تشريداً لسكان البلد الأصليين .

وفى قصيدته الثانية « هبة شعب » (كتبها عام ١٨٩٤) يعرب

عن اعتقاده بأنه إن لم تكن الحركة القومية قد نجحت بعد تحقيق آمالها بالصورة المرجوة ، فإنها على الأقل قد وضعت الأساس . إن البذرة أساس الشجر ، وكل عمل صغير هو فى الواقع عماد العمل الكبير لذلك فهو يدعو أبناء طائفته بالعمل والتعاون والاتحاد ففى ذلك قوة تعينهم على اللحاق بإخوانهم فى الأرض المقدسة وحين يتحقق ذلك أيضاً عليهم أن يتكاتفوا للعمل يداً واحدة فيقول :

لتقوى أيدى جميع إخواننا الذين يمنون
على تراب أرضنا أينما هم
تجاسروا ، ولتأتوا سعداء مترنمين
كتفاً واحداً لمساعدة الشعب

ها نحن نحكى عن تجوالك ، نحب
قطرات الدموع ، وعرق الغضب
الذى ينزل على إسرائيل كالظل ويستعيد
نفسه المتعبة الغير مستقرة

ستقدس للأبد كل دمعة هوت
فى بحر دموعنا ، هبة للشعب

كل قطرة من عرق الوجه سالكت
طريق الرب كالسمن والدسم

إن لم يعلو بنيانكم ، فقد وضعتم الأساس
طوبى لكم أخوتى فلم يضع عملكم
بنيتم ، خططتم ومهدتم
فهل كثير علينا إذا امتد الخط

ويحث بياليق أبناء طائفته على العمل ، ويناديهم بألا يصغروا من شأن أنفسهم ، فقد كانت أمجادهم مضرب الأمثال يوما ، ثم يدعوهم لئلا يترددوا بل يتوجهوا فى خطى ثابتة إلى تحقيق الهدف الأكبر فلم تعد إسرائيل مجرد عبد ، بل أصبح الأمل فى سيادتها على وشك التحقيق فيعبر عن ذلك بقوله :

نحن شعب مهد تدريجيا
صحراوات العالم وشيد بنياناً أزلياً
سيحل يوم يأتون ويتعجبوا
لرؤية صنيع شعب متجول

لماذا ، أيها المترددون ، تتردد خطاكم

هل إسرائيل عبد ، أهم من أبناء ميروز[1]
أواه ، قوى منفردة : فلتتحدوا ولتجتمعوا
ولتتكاتفوا بقوة وعزم

لا تقولوا صغرنا ، ألم تلقوا اعتبارا
لوجه يعقوب القوى ، الذى يسير فى المعركة
من أيام زروبابل ولم تخطط أيدينا
مشروعا عظيما لقوم عظام كهذا

من يحتقر يوم الصغائر ، الازدراء للمذدرين
انقذوا شعبكم واصنعوا المحاريث
حتى نسمع من فوق رءوس الجبال أصداء
الكون تنفجر منادية : هاجروا

إن بياليق يعتمد فى قصيدته هذه على نظريته « التدريجية » ، فهو لا يؤمن بالوصول إلى الهدف دفعة واحدة ، بل تدريجيا ، إنه

---

(١) ميروز : اسم مكان ورد فى الكتاب المقدس سفر القضاة (٥/٢٣) : لعنة الله على ميروز قال ملاك الرب: لعنة الله على سكانها لأنهم لم يأتوا لمساعدة الرب

(٢) القائد الذى قاد اليهود فى طريق العودة من المنفى الأول

ينادى الشعب نداء صارخا بالهجرة إلى فلسطين لكنه لا يمنيه بحياة ممهدة هناك ، بل عليه أن يكد ويعمل تدريجياً ويتعاون فى سبيل الوصول إلى هدفه .

والواقع أن بياليق قد بدا فى هذه القصيدة أقرب إلى رجل السياسة منه إلى رجل الأدب ، فهى عبارة عن منشور سياسى قومى يدعو اليهود للهجرة إلى فلسطين وإلى بذل الكثير من الجهد والعرق والتعب فى سبيل إقامة الدعامة الأساسية التى يقوم عليها الوطن القومى لليهود .

إن الشعب كان يمر بأزمة نفسية رهيبة فقد كانت تكمن فى نفسه عوامل كثيرة منها فقدان الثقة وعدم الإحساس بالأمان ، تلى ذلك انطفاء جذوة الحماس الدينى وعدم الاهتمام بالتوراة ، لذلك فقد مسك بياليق بهذا الخيط وعبر عنه فى أشعاره ، وقد كرس العشرين سنة الأولى من نشاطه الأدبى تقريباً لرفع روح اليهود المعنوية ولمحاولة القضاء على الانحلال الذهنى والروحى الذى ساد حياة اليهود فى تلك الفترة . يظهر صدى ذلك واضحا فى عدة قصائد حاول بها — بكل ما أوتى من نزعة دينية تأصلت فى نفسه حين كان يعيش فى بيت جده المتدين — إصلاح الشعب وتهذيب نفسه عن طريق تمجيده للتوراة وتأكيده لعظمة الرب ، وإثباته لهم أنهم لن يصلوا

إلى بر الأمان إلا إذا آمنوا ووثقوا فى الله وفى شريعته . ومن هذه القصائد قصيدته «عودة من التجوال» (كتبت عام ١٨٩١) حين ترك الشاعر Volozhin إلى أوديسا ، فقد شعر بخيبة أمل لوقوفه على مظاهر الانحلال الروحى عند اليهود .

وهو يصف المأساة التى نتجت عن عزف اليهود عن التوارة ووصولهم إلى هذه المرتبة من الانحطاط فى قصيدته «على عتبة بيت الدراسة» ، وفيها نعى هجران اليهود للتوراة التى تعتبر رمز حياتهم ومنار طريقهم ، فقد تركوها ليبحثوا عن السعادة ، فلم يفلحوا ، وهو يؤكد لهم أنهم لن يجدوا الراحة والأمان إلا فى دار الدراسة — بيت همدراش — وهو فى هذه القصيدة إذ يحمل نفسه مهمة الأنبيـــاء فى الوعظ والإرشاد قد عبر عن ثقته فى الشعب وفى انصلاح حالهم إن هم تعمقوا فى دراسة التوراة التى تنطوى على المثالية اليهودية .

إن مجرد ابتعاد اليهود ولو بقدر ضئيل للغـاية عن الارتباط بالأصول والجذور الدينية التى تقوم عليها الفلسفة اليهودية عامة ، قد جعل بياليق — شأنه شأن جميع الأدباء والمفكرين من زعماء الحركة اليهودية — يسخر جهوده الأدبية لرد اليهود باعتبارهم مارقين إلى حظيرة هذه الفلسفة الدينية اليهودية على أساس أنها المحور الذى يتجمع حوله اليهود .

أما فى قصيدته «إن كنت تريد أن تعرف» فيصور «دار الدراسة» على أنه مصدر قوة الشعب وملاذ لمن ضلت روحه ونفسه ، فهناك يجد مأمنه ويقرب عتبة الإيمان حين يعاشر من يقضون ليلهم ونهارهم فى دراسة التوراة .

ونستدل من قصائده هذه المحاولة الصادقة لربط الشباب اليهودى بالدين والشريعة ، فقد تعود اليهود على أن يتخذوا من فكرهم الدينى عماداً يقيمون عليه صرح حركاتهم القومية ، لذلك فقد حرص الأدباء — الذين يعتبرون أنفسهم مسئولين عن الحياة اليهودية وتطورها — على حث أبناء طائفتهم بعدم التخلى عن فكرهم الدينى ، وفقد صلتهم بالمبادىء الدينية التى يقيمون على أساسها تاريخهم ومستقبلهم .

وحين يلمس الشاعر بطء تنفيذ أهداف الحركة القومية ينطق بيأسه فى قصيدته « الشعب كالعشب » وفيها يطالب اليهود بالعمل ، فإن الشعب فى الوقت الذى تنشأ فيه المثالية القومية ينشغل هو عنها بكسب العيش . إن الشعب لا يستجيب لصرخة من يحاولون تحقيق هدفه ، لأن آلاف السنين من التجوال والمنفى قد تركت بصماتها على روح الشعب فغدا يفضل التراخى ولا يستطيع النضال . والواقع أن بياليق حين يقول أن الشعب تعود على ضرب السياط قد تأثر

بفكر أحادها عام عند قوله أن الشعب تعود على العبودية [١] .

وإن لم يكن بياليق قد احتل مركزا صهيونيا رسميا إلا أنه كرس بعض قصائده لعرض أفكار الصهيونية ففى قصيدته « اجتماعات صهيون » لخص الدور التاريخى للمؤتمر الصهيونى الأول فى بازل كما أكد حتمية الدعوة لاتحاد اليهود وضرورة إيقاف العالم بأسره على ما يسميه ببؤس اليهود ورغبتهم فى التحرر [٢] .

لقد تغلبت النزعة الدينية عند بياليق على معظم أشعاره ، فهو حين يقرض الشعر فى الطبيعة وجمالها يأتيها من ناحية دينية فيكثر الحديث عن النـــور ، والمعروف أن النور عامل مهم فى الحياة اليهودية ، حيث يعتقد اليهود أن الرب قد استهل خليقته بخلق النور . وقد استغل النور كرمز للطهارة والخلاص عبر عصور الأدب العبرى ، أما بياليق فقد استخدمه كرمز للقومية اليهودية . فمن قصائده عن الطبيعة «عند الفجر» كتبها تقليداً ليهودا اللاوى [٣] ـــ الشاعر العبرى فى القرون الوسطى ــ يصف فيها شروق الشمس الذى يمحو كل أثر

---

(١) أنظر مقال المؤلف قراءة فى فكر أحادها عام مجلة الفكر المعاصر ، العدد ٦٥ س ٩٥ .

(٢) Waxman, A hitstory of Jewish literatre, Vol IV p. 246.

(٣) نفس المرجع السابق س ٢٤٨ .

لليل . وفى قصيدته « أشعة الشمس الصباحية » يعبر عن حماسه للنور والشمس وفرحته حين تشرق الشمس فتملأ غرفته بأشعتها التي يشبهها ببسمة طفل أو قلب أم حنون . كذلك فقد أبدع فى قصيدته « روعة » فى وصف نور الشمس منذ الفجر حتى الظهيرة ، ومدى تأثير الضوء على الزهور والفراشات والطيور بيد أن روح اليأس تتغلب عليه فى نهاية القصيدة ، اليأس من اضمحلال الروح القومية عند أبناء شعبه فيعرب عنها بقوله إن الشمس لا تمنحه سوى حرارتها فقط .

ولا يفوتنا عند عرض إنتاج بياليق الأدبى ذكر ما كتب من أساطير فقد قيل أنه بلغ فى هذا الحقل الذروة (١) . وعلى الصدارة تقف قصيدته « إلى الهجادا » وفيها يحكى عن العذاب الروحى الذى يعانيه أبناء طائفته . ويتغنى بأيام الملكين داود وسليمان ، ويبكى على انقضاء هذه الأيام كما يعبر عن راحته وشعوره بالأمان والاطمئنان كلما جلس لدراسة الهجادا فى صفحاتها يجد تعويضاً عن حياة الواقع .

حيث يقول :

فيك يا أوراق التلمود ، فيك يا أوراق بالية

---

(١) Ribalow, The flowering of the modern Hebrew literature, p. 25.

أيتها الهجادا ، القديمة المحبوبة
فى أيام الضياع ، أتأوه من المحنة
وفيك تجد روحى العزاء

ويختتم القصيدة بتعبيره عن إيمانه بقوة الشعب وأمله فى أن يراه محققاً لآماله رافعاً رأسه عالياً . هذا الإيمان وهذا الأمل ينبعان كلما درس الهجادا وتعمق فيها ويعبر عن ذلك بقوله :

حينئذ سأرى رأس شعبى عالياً شامخاً
يبلغ علو قوته وقدرته السماء
سأعرف نهايته ، هذا الشعب الشبيه بالدودة
يمكن أن يكون مستقيما وعملاقا .

كذلك فقد كتب بياليق قصيدة قصصية تاريخية بعنوان « موتى الصحراء » استمد أسطورتها من التلمود [1] عن قصة خروج بنى إسرائيل من أرض مصر وهلاك هذا الجيل المتمرد فى الصحراء طبقاً لحكم الله على خطاياهم . لكن الأسطورة تسرد أن هؤلاء المتمردين ما زالوا قابعين فى مكان خفى فى شبه جزيرة سيناء . وقد خلق بياليق من هذه الأسطورة قصيدة تثبت قدرته على الوصف ،

(١) Waxman, A history of Jewish litrature vol. IV p. 254.

فهو يصف الصحراء ويصف المتمردين الموتى وعلى وجوههم تعبير عن السلام والقوة ، ثم يصف لحظة هبوب عاصفة هوجاء يليها صحوة هؤلاء الموتى حيث يعبرون عن عنادهم ورغبتهم فى الحرية بل واحتجاجهم على حكم الرب . والواقع أن بياليق يهدف بقصيدته هذه إلى شىء أبعد من مجرد سرد أسطورة ، فهو يرمز بأموات الصحراء إلى جيله المعاصر الذى ظل قابعاً فى رقدته لا يشعر بما يجرى حوله من مظاهر التحرر الذهنى والروحى ، كما يعبر عن ضرورة انبعاث جيل جديد يسعى للخلاص والحرية ، وهو بذلك يشجعهم على القيام بهذه الخطوة باعثاً فيهم الأمل فى النجاح .

ومن الجدير بالذكر أنه رغم مناداة أدباء هذه الفترة بمحاكاة الشعوب الأوروبية والوصول إلى ذلك عن طريق الاطلاع على آدابهم إلا أنهم قد لاحظوا خطورة ذلك وذلك ما حدث بالنسبة لبياليق نفسه حين اكتشف أن انغماسه فى الثقافات الأوروبية جعل شحنة انفعاله الدينى قد انطفأت ، فيخبرنا بنفسه أنه قد ساوره الشك فى إيمانه الخالص وشعوره الدينى لفترة من الزمن ، فهو حين يقف أمام الكتب الدينية التى كان لها فعل السحر عليه فى الماضى لم يعد يشعر بذلك السحر وهو يحلل ذلك بانغماسه فى الثقافات الأوروبية ، فيعبر عن ذلك فى قصيدته « أمام صندوق الكتب » حيث ينطق

حسرة على فقدان تلهفه على الكتب الدينية وفقد تأثير تلك الكتب على اليهودى الحديث الذى تزعزع إيمانه من جراء تجوله فى حقول الثقافات الأجنبية .

وقد يبدو الأمر تناقضاً وتأرجحاً بين الأخذ بالفكر الأوروبى المتحرر والارتباط بالفكر اليهودى المتعصب ، إلا أن هذا التناقض يمكن أن يتبدد إذا تأملنا الأمر حيث نجد أن زعماء الحركة يرمون إلى الاستفادة من التطور العلمى الأوروبى كذلك يهدفون — فى الوقت نفسه - إلى الارتباط بالفلسفة الدينية . فكما لاحظ زعماء اليهود جنوح اليهود نحو التحرر سرعان ما يشدوه إلى فكرة القومية اليهودية حفاظاً على الروح اليهودية المتعصبة وتأمينا لتحقيق المستقبل الذى يحلم به اليهود .

* * *

شاءول تشرنيخوفسكى

شاعر روسى ، ولد فى قرية « بيلييرفا » فى روسيا عام ١٨٧٥ وتوفى فى تل أبيب سنة ١٩٤٣ . اهتم فى دراستـه باللغة العبرية الحديثة وعزف عن التعليم المتدين فلم يلتحق بـ « حيدر — كتاب » ولا بـ « بيشيفاه — أكاديمية » .

نشأ تشرنيخوفسكى فى بيئة فيها من مظاهر الطبيعة الخلابة ما جعل شعره يصطبغ بصبغة دنيوية — على عكس ما هو شائع عن الشعراء اليهود الذين تغلب على شعرهم النزعة الدينية — فطالما تغنى بالطبيعة والحب والجمال . وهو فى إنتاجه الشعرى الدنيوى هذا يعد فى طليعة الشعراء اليهود .

أطلق عليه « شاعر الوثنية » والوثنية عنـده تعنى وجود قوة عدائية فى طبيعة الإنسان وأخرى على نقيضها طيبة محبة منقذة علينا أن نـكتشفها وأن نسخرها لصالحنا ، وعليه فإنه يؤمن بقوة الشعب اليهودى التى يراها مكبلة بقوانين وشرائع لاحصر لها .. ولذا أطلق عليه « شاعر القوة » . أو « شاعر الجبروت » ذلك لقوة دفاعه عن القوى الـكامنة فى الشعب اليهودى فنراه يقول فى قصيدته « ثلاث حقائق » .

في العالم ثلاث حقائق
جوهر الحقيقة وضياؤها
حقيقة الجبروت
حقيقة القوة .. حقيقة الشعب
جيل من بعد جيل يأخذ بإحداها
طالما تحيا نفسه وروحه لا يكل

في العالم ثلاث حقائق
جوهر الحقيقة وضياؤها
حقيقة الفرد
حقيقة الجماعة
حقيقة الإنسان .. حقيقة الطائفة
أمه .. تنكشف لها الحقيقة .. تطورها
وتدمرها حتى يحل بها الدمار
ومن هي هذه الأمة الصاعدة فوق الأمواج !

نشأ تشرنيخوفسكي في الوقت الذي كان اليهود في روسيا يبذلون جهودا مضنية لنيل حريتهم ودفع الظلم والاضطهاد عنهم وللتمتع بعد

ذلك بمزايا الاشتراكية التي تنادى بالمساواة وتحارب التفرقة العنصرية والدينية . . ويكبر الأديب وتكبر معه آماله القومية ، فيكرس كل جهوده الأدبية للإحياء القومى اليهودى ويبذل كل جهده لإحياء الثقافة القديمة التي هى فى نظره ونظار معاصريه من الأدباء اليهود وسيلة الإحياء القومى ، وتعتبر قصيدته « إنى أومن » (الإعلان الأول) لإحياء الثقافة اليهودية القديمة .

ويمكن تقسيم تاريخ تشرنيخوفسكى الأدبى إلى ثلاث فترات ازدهار تكون فى مجموعها ٥٠٠ قصيدة وكثيراً من النثر كما كتب بعضا من الأشعار الروسية . وخلال هذه الفترات تميز شعره بعمق الجرس وباللون الفريد الذى يضفى على بعضها مسحة حزن وكآبة وروح الفكاهة والمرح على البعض الآخر .

أولها فترة « هايدلبرج » وفيها تغنى بالقوة ، وكتب قصائد الطبيعة وبخاصة المثاليات « عهد الكلمة » ، « قلوب » ، « كحرارة اليوم » ، وعدد من قصائده التي جمعت فى كتاب « رؤى وألحان »[١] وهى تصوير رائع وتجسيد حى لجمال الكواكب والشمس ، الغابات ، الجبال ، الصحراء ، البحر ، الحقول وسائر المظاهر الأخرى

---

(١) اشر فى وارسو عام ١٨٩٨ .

للطبيعة . وتتميز قصائده فى هـذه الفترة بطولها حتى أن القصيدة الواحدة تبلغ أحيانا ٥٠٠ بيت .

وفترة الازدهار الثانية هى فترة « أوديسا » وفيهـا تظهر قومية تشرنيخوفسكى واضحة فى أشعاره .. فبينما اشتد شعور اليهود بالتمزق والدونية والانفصال عن المجتمع الذى يعيشون فيه كان هو يبث فيهم روح الحماس للعمل من أجل الاستقرار القومى ، ويحثهم - بشعره - على الصمود والصبر والاحتمال ، داعياً فى الوقت نفسه إلى التمسك بتحقيق تكوين وطن . . وفى غمرة دفعهم على الصبر والمثابرة والصمود استشهد أحيانا بالطبيعة ففى قصيدته « لا تظنى أنها لحظة نوم ياطبيعة » [1] يضرب لهم المثل على الصمود بالصخر الذى تتراطم عليه الأمواج ومع ذلك يظل صامدا فى مكانه متحملا الصدمات .. وفى هذه القصيدة يدعو أبناء طائفته إلى نفض روح اليأس عنهم بأى وسيلة . فمثلا هو حين تسيطر عليه روح اليأس ينفرد بنفسه فى مكان خال ليرقب الطبيعة ويستمد منها قوته حيث يرى الصخر العتيق شامخاً صامداً أمام موجات البحر العاتية ترتطم به فلا تنال منه شيئا .. ومن ثم فهو ينادى اليهود لئلا يحنوا رءوسهم للمصائب والأحداث ويطالبهم بضرورة الكفاح والنضال حتى يتحقق الأمل المنشود : فهو يقول :

---

(١) كتبها فى أوديسا عام ١٨٩٦ .

حينما الأحلام تحلو
لا تظنى أنها لحظة نوم
يا طبيعة
كلما يخفق فى جنبيك خفقات شعور
بينما عصف الرياح وطبول الحرب تدوى
فوق هامات الجبال
تحت بطن الأرض
فى موج السحاب فى متاهات الصحارى
حينما تصرخ جروحى ويعض الحزن روحى
وأرى أحلامى تذوى مثل ورد فى الخريف
أدع الناس إلى حيث ضجيج الأزمات
فى مكان يتسامى فوق أنات الألم
مثل صخر شامخ عمره عمر القدم
يصرع الأمواج وهى مقبلات فى تحد
موجة من بعد أخرى تلطم الصخر بحقد
وهو صلد لا يلين وهى تعلو كالجبال
وأنا فى خجل أرقب ذياك النضال
يصمد الصخر ويعلو رأسه فوق الجراح
يغلق القلب على الجرح وإن ضج الكفاح

وهو على إيمانه بالصداقة التى قد تساعد أبناء شعبه روحياً . .
لا يكف عن إيمانه بضرورة العمل والكفاح من أجل تحقيق الهدف الأكبر .. من أجل يوم الخلاص . يوم يزدهر نجم الشعب من جديد ليحيا حياة فعلية على الأرض ، فالحياة الروحية حياة الخلود لم تعد كافية له . . وتظهر كل هذه الأفكار فى قصيدته « إنى أومن »[1] التى تعتبر بداية الانطلاق كما بينا فيما سبق ففيها يقول :

اضحكى اضحكى على الأحلام

أنا الذى يحلم أتحدث

اضحكى لأنى أومن بالإنسان

لأنى مازلت أومن بك

لأن نفسى لم تزل ترغب فى الحرية

لم أبعها لعجل من ذهب

لأنى مازلت أومن بالإنسان

فى روحه . . روح قوية

اضحكى لأنى أومن بالصداقة

---

(١) كتبها فى أوديسا عام ١٨٩٢ .

أومن لأنى أجد قلبا
قلبا . . آمالى آماله
يستشعر السعادة . . يحس الألم
أومن بالمستقبل . . حتى ولو بعد حين
لكن حتما سيأتى .. يوم يرفعون راية السلام
يعود فيزدهر شعبى
وفى الأرض يقوم جيل
ترفع عنه قيود من حديد
يرى النور عينا لعين
يحيا يحب .. يفعل — يعمل
جيل فى الأرض ، يعيش حياته الحاضرة
لا فى المستقبل . . ولا فى السماء
حياة الروح لم تعد تكفيه

آنذاك يلقى شاعر أغنية جديدة للجمال
بقلب واع
ويومذاك من فوق قبرى تضفر له
الشباب إكليل من زهر

وفى قصيدته «أغنية الأريكة»[1] يناشد أبناء شعبه ألا ييأسوا .. عليهم أن يصبروا حتى تشرق شمسهم ويتحقق أملهم .. نعم سوف يتشردون .. سوف يلاقون العذاب .. وحتى إذا تأخر فجر أملهم فى البزوغ .. وحتى إذا تأخر مجيء يوم الخلاص ، فإنه آت حتما .. يوم يسكن فيه الشعب مكان العرب فى الأردن وفى ذلك يقول :

اغربى يا ظلال .. اصمتى يا طيور

انعس يا بنى .. يا صغيرى

لا تخف من ظلال الظلام

نهر الشرق .. أجنحة النعام

تغرد وتغنى

يشحب الفجر .. ومن قديم الزمان

تشرق شمسنا

يهودى .. أنت يا بنى .. فى هذا سعادتك

وأيضاً نكبتك

فرع سلالة شعب عريق

تفوق عظمتك الشعوب

---

(١) كتبها فى أوديسا عام ١٨٩٧ وقت انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى بازله .

ما زلت صبياً . . سوف تكبر وتعرف
الأمجاد التى صنعها شعبك
سوف تكون رجلا . . يد القسوة
ستحل بك ، ستصعقك يا صغيرى
ستتيه فى الأرض
لكن موطنك واحد . . معجزتك « صهيون »
وإن هويت للقاع . . وإن تأخر يوم الخلاص
لا تيأس يا أسير الأمل
فستشرق شمسنا

على الأردن وفى الشارون [1]
هناك يعسكر العرب
ستكون لنا هذه الأرض

وهكذا نرى أنه فى الوقت الذى لاقى اليهود الأمرين من التفرقة العنصرية فى بعض الشعوب التى عاش اليهود وسطها ، ومع ذلك يقوم تشرنيخوفسكى بنفس الدعوة . . دعوة التفرقة العنصرية حيث يؤكد فى ذهن اليهود أنهم شعب أسمى شعوب الأرض وأن عظمتهم تفوق عظمة جميع الشعوب .

---

(١) اسم خاص لسهل الميثور غربى إسرائيل .

ويهاجر تشرنيخوفسكى إلى أرض أحلامه وهناك فى تل أبيب حيث استقر تكون فترة ازدهار أدبه الثالثة . . وفيها يشتعل حماسه إلى أقصى الحدود من أجل الاحياء القومى اليهودى ومن أجل استقرار اليهود . . فيواصل جهوده الأدبية بلا كلل لإغراء الشعب وتشجيعه على الهجرة هناك كخطوة عملية للاستقرار القومى . . فيعبر فى قصيدته « أتحرق شوقا للتيه . . »[1] عن أحاسيسه ورغبته فى التجول فى كل شبر فى أرض أمنياته ، وليرى نهر الأردن الذى يربط أنحاء الأرض روحياً ومادياً بينما تتردد على مسامعه أنشودة العمل التى يغنيها العمال والفلاحون .

وفى هذه القصيدة يقول :

أتحرق شوقا للتيه بطريق بـ « شارون » ممهد
أتحرق شوقا كى أنصت لصغير ينبوع
ما بين نخيل ونخيل من كرم أو سور مرفوع
كى أسمع ضربات الفأس أو صوت المنجل فى العشب
أغنية العمل الدائمة .. أغنية تبقى للأبد
أتحرق شوقا لطريق .. لكن من أين بدايته
وإلى أن أعرف أين يكون

(١) كتبها فى تل أبيب عام ١٩٣٤

سأسير إلى بيت شان [١]
من حيفا .. من سهل (أخضر) وإلى قريتنا تافور
من بئر يمتد لبئر . لحن ردده المثقاب
أغنية العمل الدائمة
نمضى للأرض مع الفجر ، لنشق ثراها ، نفلحها
والريح البارد يلفحنا بجليد من ذروة سنير [٢]
والشمس تطل من الأفق
تطوى بسناها الظلمات
فتردد أغنية العمل

تصرخ أعماق فى عنف
ورؤى الأردن وأخدوده
تمنحنا المتعة والأملا
النهر الأخضر مأملنا
يربط أجزاء أراضينا
برباط يبقى للأبد

* * *

(١) البيسان حالياً وتقع غرب الأردن
(٢) اسم لجبل حرمون

إن تشرنيخوفسكى يدعو اليهود دعوة صريحة للكفاح والصمود على الحياة على أمل تكوين وطن قومى لهم يلجئون إليه وينتمون إليه مستنداً فى تحديد هذا الوطن إلى التراث اليهودى القديم الذى يزعم أن أرض فلسطين هى أرض اليهود .

كذلك فإنه ينادى اليهود بضرورة الاعتماد على أنفسهم لتحقيق أحلامهم ، فهو يؤمن إيمانا عميقا بالقوى الكامنة فى اليهود والتى يجب أن يستغلوها لصالح قضيتهم .

وقد استمد تشرنيخوفسكى وحيه وإلهامه دائما من الطبيعة حيث اتخذ من مظاهرها مشجعاً لليهود على ضرورة النضال والعمل فى سبيل حل مشكلتهم الذى يراه فى الهجرة إلى فلسطين واستيطانها دون أن يلقى اعتباراً لأن فى هذا الحل إثارة لمشكلة جديدة وهى مشكلة الفلسطينيين .

وعلى الرغم من أن تشرنيخوفسكى قضى أكثر من نصف عمره فى روسيا إلا أنه كتب الأغلبية الساحقة لقصائده باللغة العبرية ولم يكتب إلا القليل باللغة الروسية . يدل ذلك على أنه كان منفصلا عاطفيا وعقليا عن الشعب الذى كان يعيش وسطه .

* * *

ومن ناحية الكتابات النثرية فقد اهتم أدباء ذلك العصر بالتغلغل في أعماق النفسية اليهودية عند الفرد العادي فتفننوا في تصوير حياته ومشاكله في إطار القصة القصيرة التي تعتبر من سمات ذلك العصر في الكتابات النثرية .

ومن خصائص القصة في ذلك العصر : دراسة حياة الفرد وتحديد ملامح شخصيته والتخلص كلية من الاتجاه التعليمي التهذيبي والجدلي . لذلك فإن أبطال القصة لم يكونوا مجرد نماذج كما في قصص عصر « الهسكالاه » بل شخصيات تمثل الفرد العادي ، وعلى لسانها عبر الأدباء عن احتجاجهم على الأنظمة المختلفة في الحياة اليهودية . فلم يكن أدباء ذلك العصر يناهضون مظهراً بعينه في الحياة اليهودية — كما الحال بالنسبة لأدباء « الهسكالاه » — بل هدفوا إلى تغيير تلك الحياة تغييراً شاملا وإعادة بنائها على أسس مختلفة .

وخير من يمثل الكتابات النثرية في عصر القومية هو الأديب صموئيل يوسف عجنون ، فقد ساهم بإنتاجه الأدبي في إحياء التراث القديم . وإليه يرجع الفضل في وصول القصة القصيرة إلى ذروة الفن في نطاق الأدب باللغة العبرية ، فقد تطورت تطوراً كبيراً

بالنسبة لتاريخ القصة السابق على هذا العصر . كذلك له الفضل فى ابتكار أسلوب فريد أدخله على النثر العبرى فى ذلك العصر (١) .

ولد عجنون فى بوشاص بجاليسيا عام ١٨٨٨ . وقد برزت مواهبه الأدبية فى سن مبكرة كما ألم بالأدب الألمانى وهو ما زال فى مطلع شبابه . وقد ذهب إلى فلسطين وهو فى العشرين من عمره وطفق ينشر إنتاجه الأدبى الذى غلب عليه الطابع الدينى الورع فأصبح من أبرز سماته .

لقد قصر عجنون اهتمامه على التعمق فى أغوار روح اليهودى والتغلغل فى أعماق نفسه ، يسجل مايعتمل فيها من صراعات ومايطرأ عليها من تغييرات .

هذه النفس — على حد اعتقاد عجنون — تنطوى على نور خفى يضىء أركانها ويحى فيها الأمل والثقة ، ذلك هو نور الإيمان بالله وحده ، الكائن الحى الذى يراقبها ويرشدها ويهديها ، لذلك فقد أعطاها التوراة لتجد النور فى دراستها والراحة فى الارتكان إليها . هذه النفس — كما يزعم عجنون — تضمر الحب ، كل الحب لأرض فلسطين وتتوق شوقاً لها ، فهناك خلاصها وتحررها من كل قيد .

(١) راجع Ribalow, The flowering of the modern Hebrew leterature P, 273,

على هذه الأسس (الله والتوراة وحب أرض فلسطين) التى اعتبرها اليهود محور حياتهم ومصدر قوتهم يتركز إنتاج عجنون الأدبى ، فقد جسدها فى إطار يختلف تماماً عن غيره من الأدباء فى أساطير وقصص شعبية أصبحت مألوفة محبوبة عند قراء العبرية ، وجعل أبطالها ينطقون بفكره بينما ظل هو فى الخلفية يحركهم بأصابعه ، يصل الخيط بالخيط ويربط القصة بالأخرى .

ورغم أن الصيغة التى انتهجها عجنون فى قصصه من إبتكاره وإبداعه إلا أننا نستشف تأثير الأدب العبرى الوسيط عليه ، كذلك تبدو استعانته بالمدراش وبالكتب الأخلاقية واضحة . أما الأسلوب ، فقد اتخذ عجنون من أسلوب المدراش والكتب الأخلاقية سنداً ، كما أنه اقتبس من التلمود ومن الهجادا أحيانا ، غير أنه أضفى على هذا وذاك صبغة حديثة ولونا جديدا فقدم للأدب العبرى أسلوباً فريداً ذى ألوان متعددة يربطها طابع مميز متجانس .

ورغم أن عجنون قد تميز وبرع فى كتابة القصة القصيرة إلا أن خصائص نثره من صيغة وأسلوب ، كذلك فكره ومبادئه تجسدت فى قصته الطويلة التى تشتمل على مجلدين بعنوان « دوتة العروس » والتى ترجمت إلى الانجليزية تحت عنوان Bridal Canopy (منصة العروس) (١) .

---

(١) Waxman, A history of Jewish literature Vol. IV, P. 181.

والواقع أنها ليست قصة بالمعنى المفهوم ، بل نموذج يحتوى على مجموعة من الأساطير الشعبية ، الأماثيل ، القصص الخرافية وغيرها مما يستهوى القارىء . فهو يجعل بطل قصته « يوديل حسيد » يقابل نماذج عديدة من الناس فينسج هو حولها القصص المختلفة ويصيغها فى النهاية صياغة متكاملة شاملة . كل ذلك فى جو يغلب عليه القدسية والورع ويفيض بما ظنه عجنون مكنون النفس اليهودية .

إن « يوديل » رجل ورع متعمق فى دراسة التوراة ، غادر بلدته ليجمع دوته لبناته الثلاث اللاتى كن على وشك الزواج ، وهو يؤمن أن فى ذلك تحقيقاً لوصية من وصايا الرب ، وهو فى تجواله من بلد لآخر يقابل نماذج مختلفة يحكى لنا عنها . من هذه القصص ما يؤكد حب اليهودى للتوراة كما ورد فى قصته حين وصل ليلا مع سائق عربته « نوت » إلى قرية قابعة فى ظلمة الليل ، لكنه يسمع فى السكون صوتا كصوت شخص يدرس . ويكذبه « نوت » فيتتبعا الصوت إلى كوخ طرقاه فأطلت منه امرأة ، أجابت على سؤالها بأن زوجها هو الذى يدرس فى تلك الساعة . ويكتشف يوديل أن الرجل يهودى اعتنق المسيحية منذ زمن ، لكنه مع ذلك لا يكف عن دراسة التوراة .

ومما سرده « يوديل » من قصص تلك التى تؤكد المتعة فى عبادة

الرب حتى لو قاسى العبد ، فإن « يرحمئيل » ظل يجمع المال سنيناً ليشترى بقرة يستغلها فى التعيش ، لكنه يقرض المال إلى « يحئيل » ملاحظ الفندق ليدفع أجرة بيته ، وبذلك أنقذه وأنقذ عمله ، وقد وجد فى ذلك سعادة بالغة لا لأنه أقرض المال لـ « يحئيل » بل لأنه أعطاه فى سبيل الله .

ويؤكد عجنون حب اليهود لأرض فلسطين وتشوقهم لها فى قصص يسردها على لسان يوديل الذى قابل بعض الناس فى المنفى لكنهم رغم بعدهم قريبون من الأرض المقدسة مما جعله يعزم على الذهاب لفلسطين بعد زواج بناته .

ويكثر عجنون من التأملات على لسان يوديل الذى يتصور أنه حين يأتى لينام تتناقش أعضاء جسمه ، فتسأل الأيدى واللسان هل من الممكن أن ينام إنسان دون دراسة التوراه والبحث فيها ، متغاضية عن شكوى القدمين والعينين من الكد والتعب . كذلك فإنه يتساءل : لم خلق الله المرء بعينين ، ألا تكفى عين واحدة للرؤية ويجيب نفسه بأن الله خلق إحداها لرؤية عظمته والأخرى لكى يلاحظ الإنسان تواضعه وضعفه .

ولم يكتف عجنون بذلك القدر بل جعل الحيوانات أيضاً تشارك الانسان فى إيمانه وتقواه فنجد أن الديك فى بيت «يوديل»

ويدعى « رابى زورح » هدفه فى الحياة إيقاظ سيده ليقوم بعبادة الرب . كذلك فإن خيول « نوت » التى تجر عربته التى استقلها « يوديل » فى رحلاته تنطق بآيات وتقوم بمناقشات دينية .

ولم يقتصر عجنون فى إنتاجه هذا بالتغلغل فى أعماق النفس اليهودية ، بل تعداها إلى الحياة العامة عند اليهودى خاصة بعد أن طرقتها حركة « الهسكالاه » ، كذلك لم يتغاض عن واجب « المسكيل » لحث أبناء اليهود على دراسة اللغة العبرية ، وخاصة قواعدها التى يعتبرها أساس ذكاء الإنسان وسموه عن الحيوان .

وتنتهى الرواية بأسطورة كبرى عن عثور زوجته على كنز فيتمكن من دفع دوتة بناته الثلاث ويحتفل بزواجهن فى حفلة يحضرها كل من قابله أثناء رحلاته .

إن « دوتة العروس » هذه رغم أن فيها تجسيد لأفكار عجنون ومبادئه ، وتصوير لجزء الباطن عند اليهودى ، إلا أن كثرة الأساطير والخرافات قد تبعث على الملل وتشير إلى أن عجنون لم ينجح دائماً فى وصل حلقة الربط بين هذه القصص والأساطير . لكن ذلك لم يعق الرواية فى الوصول إلى ذروة إنتاجه الأدبى ، وربما يرجع ذلك إلى تكوينها وصياغتها حيث أنها جمعت بين الهجادا والمسحة الدينية واللمحة الأخلاقية وروح القصة اليهودية

فى العصور الوسيطة أضفى عجنون على ذلك كله لمسة عصرية حديثة، فجاء مطبقاً لمبادىء الحركة القومية وأهدافها .

وقد ألف عجنون عدداً هائلا من القصص القصيرة ، منها ما تركز على تمجيد عظمة التوراة مثل « أسطورة الكاتب » تحكى قصة « رابى آشير باروخ » زعيم الطائفة اليهودية فى إحدى المدن الذى استغرق فى دراسة التوراة ، حتى أنه يقضى لياليه كلها ممسكا بشمعة بين أصابعه يبحث ويدرس فى التوراة فإذا نام من شدة كده تخبو الشمعة ويصل اللهب إلى أصابعه فيهب مستيقظاً ليستكمل واجبه المقدس . إن هذه الشمعة هى النور الوحيد الذى يضىء المدينة خلال الليالى المظلمة . وفى إحدى الليالى تنطفىء الشمعة كلية حيث أن « رابى باروخ » قد مات .

ويروى عجنون قصة عن الحب العائلى العميق المتأصل فى قلوب الأتقياء بعنوان « والمعوج سيستقيم » وملخصها أن « منسى حاييم » وزوجته كانا يعيشان فى رغد من العيش لكن الحظ خانهما وأصبحا من الفقراء . ويحصل حاييم على خطاب توصية من الربانى لكى يتسول ، لكنه لم ينجح فى هذه المهمة . . وفى لحظة ضعف باع خطابه لمتسول محترف نظير مبلغ من المال ليعود إلى بيته . . وفى لحظة ضعف أخرى يسرف فى الشراب فتسرق نقوده ،

ويحاول الحصول على مبلغ آخر من المال لكى يعود فى اللحظة التى يموت فيها المتسول المحترف ويدفن تحت اسم « منسى حايم » .. وتصل الاشاعة الى زوجته فتحزن عليه ، لكنها تتزوج فى النهاية.. وأخيراً يصل « حايم » إلى بلديه ويكتشف الحقيقة .. ورغم ورعه وعلمه بالشريعة إلا أنه لم يشأ تكدير صفو سعادتها .. وهكذا يبقى رجلا حياً فى عداد الأموات تحت وخز ضميره الذى يعذبه لارتكابه خطيئة السماح لامرأة متزوجة العيش مع رجل آخر وأخيراً يموت بقلب منكسر .

ويعمل عجنون فى قصته هذه على إيجاد تبرير لإرتكاب اليهودى لخطأ ما ، فاليهودى — فى نظره — لا يرتكب الخطأ لمعصية بل لسبب خارج عن إرادته . وهو يصور أن الروح اليهودية روح خيرة ، حتى لو أخطأت فإن هذا الخطأ مدفوع بأغراض طيبة .

وهذا سند كبير لدى زعماء اليهود يحاولون إشاعته دائماً فى نفوس اليهود بل وتربية النشىء عليه ، وهو خلق كافة المبررات التى تدافع عن الأخلاقيات والأفعال الشريرة التى تقع من اليهودى ، إلى حد أنهم يبررون القتل والتعذيب وسفك الدماء بالنسبة لأعدائهم مقيمون ذلك كله على أسس وأفكار دينية .

وقد ساهم عجنون فى إحياء التراث اليهودى القديم باستثارة

الحب تجاه أرض فلسطين فى قلب اليهود فى عدد من القصص كان محور بعضها تحريك شوق اليهودى إلى الأرض المقدسة . كذلك فإنه قد صور فى قصته « صغار وكبار » السنوات الأولى للنشاط الصهيونى بين الشباب فى جاليسيا .

إن عجنون قد أثرى بتعبيراته المختلفة وابتكاره لمحتويات الشكل الأدبى ومضمونه فى الأدب العبرى الحديث وأضاف الكثير إلى جوهره ولونه .

كذلك فإنه لم يتطرق كثيراً إلى حياة اليهودى عامة بل حاول الوصول إلى أعماق نفسه حتى يتسنى للمرء فهمه ، إنه يكشف عن مكنون نفسه التى يحاول إثبات أنها ترتكز على أعمدة دينية خالصة لكى يؤكد أن دوافع اليهودى للتمسك بالأرض المقدسة فى فلسطين ليست إلا دينية نابعة من نفسه التى أثبت أنها تضحى بكل شىء فى سبيل تحقيق ما يسمونه بوصايا الرب .

وسنتخذ من قصته القصيرة « من عدو إلى حبيب » نموذجاً لإنتاجه الأدبى حيث يقول : « كان ملك الأرواح يحكم فى المنطقة المسماة « تلبيوت » فى القدس ، وكان كل وزرائه وعبيده أرواحاً أقوياء وقساة ، يسكنون الجبل والوادى والسهل ويفعلون كما يحلو لهم كأن الأرض هى أرضهم فقط . وذات مرة تصادف

وذهبت إلى هناك حيث الجو صحو والأرض رحبة وكنت أستمتع بالنزهة حين قابلنى « روح » فقال لى ماذا تفعل هنا فقلت له إنى أتنزه فرد على بلطمة قوية أسقطتنى أرضاً ولما اعتدلت واقفاً صرخ: اغرب عن وجهى . وحين أدركت انى ان أستطيع التفاهم مع من هو أقوى منى ، ذهبت لحالى . وعدت إلى المدينة وما أن دخلت بيتى حتى ضاقت نفسى فخرجت ، ولا أدرى كيف قادتنى قدماى إلى « تلبيوت » ، لكن هذه المرة أخذت قضيباً وأوتاداً ونصبت لى خيمة لأحتمى بها من « الروح » ومن العاصفة .

وبينما كنت أجلس هناك ذات ليلة انطفأ النور فجأة فخرجت لأرى من أطفأه فوجدت الروح واقفاً بالخارج فسألته ماذا تريد فكان رده أن بطش بى بطشا شديداً وأنه اقتلع أوتاد خيمتى .

« وأدركت أنى لست نداً له فقفلت عائداً للمدينة وجلست بين الأسوار .. ولما ازداد حنينى قررت الذهاب إلى مكان يناسبنى جوه .. وهل فى الدنيا جو أجمل وأنسب من جو « تلپيوت » . وأخذت معى هذه المرة ألواح خشب وأقمت كوخا وظننت أنى سأكون بذلك آمناً مستريحا ، لكن فى إحدى الليالى هزت الحوائط وسقط السقف ، لقد اقتلع « الروح » كوخى ، اقتلعه وتركنى بلا مأوى ، فعدت إلى المدينة .. وما حدث لى فى المرتين السابقتين حدث فى المرة الثالثة .

ضاقت بي نفسي حين قدمت المدينة . . وقلبي أواه إن قلبي يجذبني بقوة للمكان الذى طردونى منه . . وكنت أقول له من غير الممكن أن نعود فقد طردونا من هناك فكان يقول بل من الممكن ألف مرة . فأحضرت أخشابا وحجارة ، وبنيت لى بيتا .. وإنى لا أمتدحه لأنه صغير ولا أخجل منه لأن هناك ما هو أكبر منه . بيتى صغير لكنه يتسع لإنسان .

ورأى « الروح » أنى بنيت لى بيتا فجاء وسألنى ما هذا فقلت : هذا بيت فضحك وقال لعمرى ما رأيت شيئا يثير الضحك كهذا البيت الذى تتحدث عنه فضحكت بدورى قائلا : ها قد رأيت ما لم تر بعد . . فطلب منى أن يفحصه ومد يده ليفحص الباب فكسر الباب وهوى . . ومد يده ليفحص النوافذ فكسرت النوافذ وسقطت . . أخيرا صعد إلى السقف فما أن صعد حتى هوى السقف ، فضحك « الروح » وسأل : أين بيتك الذى بنيته فتساءلت أين بيتى بيد أنى لم أضحك .

وحين كان « الروح » يطردنى فى البداية كنت أعود إلى المدينة .. ولكن الآن حدثت حوادث تعوقنى عن العودة للمدينة .. وجلست حائراً وسط الخراب .. أأعود إلى المدينة .. لا يمكننى العودة بسبب تلك الأحداث التى حدثت هناك .. أأعود إلى « تلبيوت »

لا يمكننى ذلك أيضا بسبب «الروح» الذى يطردنى .. أأنصب خيمة أم أقيم كوخا أم أبنى لى بيتا صغيرا . إن كل ذلك لن يكون ولن يدوم بسبب بطش « الروح » .

وفكرت فى أن البيت الصغير لم يتحمل بطش الروح لكونه صغيرا وبسيطا ، فربما لو كان كبيراً ومتينا لما استطاع « الروح » تخريبه . وأخذت أخشابا وأحجارا وملط وأسمنت ، واستأجرت فعلة ممتازين وعملنا ليل نهار ولم يفوتنى تعميق الأساس وأخيراً تم بناء البيت على أسس قوية متينة .

وجاء «الروح» ونقر على خشب النافذة ، فسألت من هذا فقال : جار . . جاء ليبارك جاره على بيته ويحتفل به معه .. فقلت له وهل يأت الجار من النوافذ كالسارق ؟ فجاء ونقر على الباب وقال : هأنذا ، فقلت إن الليل عاصف وإنى لأخشى البرد .. انتظر حتى تشرق الشمس فأفتح لك . وأشرقت الشمس فخرجت لأفتح له فلم أجده . وتطلعت حولى فرأيت الأرض جرداء أمام بيتى ، ليست هناك شجرة أو حديقة . ليس هناك سوى تراب وأحجار فقلت لأغرس لنفسى حديقة وعزقت الأرض وقمت بحرثها وغرست نباتات ، وسقط المطر فروى النباتات ، ونزل المطل فنبتت ، وبزغت الشمس فأزهرت . ولم يطل الزمان حتى أورقت الأشجار وأصبحت ذات

فروع كثيرة . وصنعت لنفسى مقعدا وجلست فى ظلها .

وعاد « الروح » ذات ليلة وضرب الأشجار فردت له الضربة فلم يتمالك وذهب لحاله .. ومنذ ذلك الوقت تواضعت نفس «الروح» وانتهج مسلكا مقبولا ومن ثم فقد اتخذت نفس مسلكه . . فحين يأتى أخرج لمقابلته وأطلب منه أن يجلس معى فى الحديقة بين الأشجار ، فيأتى ويجلس ، ولم أذكره مطلقا بأفعاله الشائنة السابقة حيث بدا لى نادماً عليها . وحين يفارقنى كنت أطلب منه أن يعود .. وهكذا انتهجنا مسلك الجيران الطيبين . وهذه هى الحقيقة ، فقد أصبحت أحبه . وربما أصبح يحبنى هو أيضاً » .

والقصة كما رأينا رمزية إلى حد بعيد ، فهو يرمز إلى العرب بالأرواح الشريرة المتربصة باليهودى والتى تبطش به كلما أراد الذهاب إلى منطقتهم ، وذلك لكونه ضعيفا بلا حماية .. لذلك يرى عجنون أنه على اليهودى — لكى يحمى نفسه منهم — أن يقوى نفسه وأن يعمر الأرض التى يحل بها حتى يستطيع أن يثبت قوته فيها .. وبالتالى يحول بين الأرواح الشريرة (العرب) وبين التعرض لليهود أو الفتك بهم . . فنرى فى القصة أن هذا الإنسان الذى كان يشعر بالضعف تجاه تلك الأرواح مالبث أن سلح نفسه وأوضعها موضع قوة ومن ثم تمكن من الوقوف فى وجه « الروح » . وفى ذلك تعبير صادق

عن طابع اليهودى الذى يتسم به دائما من التظاهر بالضعف وقلة الحيلة لحين الوصول إلى هدفه وتحقيق مآربه وهنا ينقلب إلى النقيض .

وقد قصد بالمدينة والأسوار دول أوروبا حيث كان يعيش فى الجيتو التى لا يطيقها ويحن دائما للذهاب إلى الأرض المقدسة زاعماً بأن هذا الهدف يستند على أسس دينية .

وقد بلغ التفكير اليهودى — الذى يعبر عنه عجنون — ذروة العجب فيدعى أن اليهود جاءوا إلى أرض فلسطين وكانت صحراء جرداء حولوها إلى أرض خصبة خضراء . وقد جسد عجنون ذلك فى بطل القصة الذى حول الصحراء من حول بيته إلى حديقة غناء .

ويمنى عجنون نفسه بصداقة تقوم بين العرب واليهود فى جو يسوده السلام والتفاهم . فيختتم قصته بصداقة بين بطل القصة و « الروح » . هذه الصداقة قامت بعد أن أصبحا متساويين فى القوة بل وربما فاق بطل القصة — الذى يمثل اليهودى — « الروح » — الذى يمثل العرب — قوة وبأسا .

وينتهى الأمر بالتعايش السلمى بين اليهودى الذى كان ضعيفا وبين الأرواح الشريرة ، ولكن بعد أن أصبح هذا اليهودى الضعيف قوياً مارداً . وإذا ترجمنا ذلك الى لغة العصر الحديث وما يجرى الآن فإن ذلك يعنى تحقيق السياسة التوسعية التى تهدف إليها إسرائيل

والتى تعنى إخضاع الدول العربيـة والشعوب العربية للسيطرة الإسرائيلية .

ومن القصة يتضح لنا زعم اليهود بأن « اللاسامية » والمذابح فى دول أوروبا هى التى جعلتهم يلجئون إلى أرض فلسطين . ولكن الحقيقة فى الواقع أن اليهود — وخاصة الشباب — هم الذين بدأوا فأثاروا الشغب والفتنة فى دول أوروبا مما أدى إلى محاولة الحكومات الأوروبية وضع حد لهذا الشغب وتلك الفتن فجاءت بالصورة التى يطلق عليها اليهود « اللاسامية » .

وعجنون الذى يمثل التفكير اليهودى قد عبر بقصته هذه عن مآرب اليهود وتبريرهم لوجودهم واستقرارهم فى أرض فلسطين .

* * *

تعقيب

يعتقد دعاة القومية أن القضاء على تشتت اليهود واضطهادهم وتفرقتهم إنما يتم عن طريق خلق الوطن القومى أى خلق الأرض التى تضمهم ويعيشون فوقها كشعب له قومية ، وهذا لا يتم إلا عن طريق كفاح اليهود أنفسهم لتحقيق هذه القومية وعدم انتظار أى مساعدة من شعوب وحكومات الدول الأخرى .

وكما اتضح لنا من هذا العرض السريع للحركة القومية ولنماذج أدبها أن دعاة القومية قد أقاموا حركتهم على أساس دينى ، فاليهودية كدين هى مقوم أساسى للقومية اليهودية ، لكنهم رفضوا فكرة أن اليهود طائفة دينية ، فذلك يعنى أنه من الممكن أن يعيشوا ضمن أى شعب من شعوب العالم كمواطنين شأنهم شأن مواطنى هذا الشعب فى حين أنهم يسعون إلى تكوين قومية ووطن قومى ، لذلك فهم يرفضون اليهود كطائفة ويستبدلونها بمفهوم اليهودية كأمة وبذلك يتيسر لهم إنشاء الوطن القومى مدعما بهذه الفكرة .

وكان دعاة القومية متلهفين على تحقيق هذه القومية وإنشاء الوطن

القومى ، الأمر الذى دعاهم إلى الدعوة الملحة للهجرة من أوروبا إلى فلسطين وبداية إنشاء المستعمرات اليهودية فى قلب الوطن العربى الفلسطينى كنواة تدعم تدريجيا لإغتصاب حقوق الشعب الفلسطينى . وكان يعنيهم كثيراً تطوير الرجل العادى فاهتموا به وأبرزوا مزاياه الطيبة أو حاولوا إلصاق المزايا الطيبة إلى شخصيته ، لأن شخصية الرجل العادى سوف تكون فيما بعد النمط الذى يشكل الشعب اليهودى كما يظنون .

خاتمـــة

وبينما كانت الحركة القومية تسير فى خطوات بطيئة صوب تحقيق أهداف اليهود ، صدر فى عام ١٨٩٦ كتاب هرتسل « الدولة اليهودية » والذى عرض فيه خطة لخلق دولة يهودية فأحدث ذلك امتداداً للتاريخ اليهودى ، وأخرج الحركة القومية من نطاقها الضيق إلى عالم السياسة الواسع متمثلا فى المرحلة الثانية والتى سميت بالصهيونية ، وكان انعقاد مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧ أول خطوة تنفيذية لتطوير الحركة القومية فى إطارها السياسى الجديد .

وكان المهاجرون الأوائل إلى أرض فلسطين والذين كانوا يسمون بأل « الطلائع » ـــ الحلوتسيم ـــ مشبعين بروح القومية ، فقضت الحاجة بذلك إلى تطوير القيم الثقافية فى المركز الفلسطينى مما أدى إلى إحياء اللغة العبرية كوسيلة للاتصال ، كذلك أدت الحاجة لنشر الثقافة القومية إلى خلق إنتاج أدبى كبير فى تلك اللغة .

وبظهور الحركة الصهيونية حدث التحول العملى على المستوى الدولى فى سبيل خلق الدولة اليهودية ، وإن كانت الحركة الصهيونية لا تعدو أن تكون امتداداً للحركات السابقة عليها وحلقة ضمن حلقات مخطط اليهود ليس فقط فى بناء الدولة اليهودية وإنما فى محاولة السيطرة على العالم .

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٨٢/١٩٧٢

دار الثقافة العربية للطباعة ت ٩٢٦٧٢٤ - عابدين

